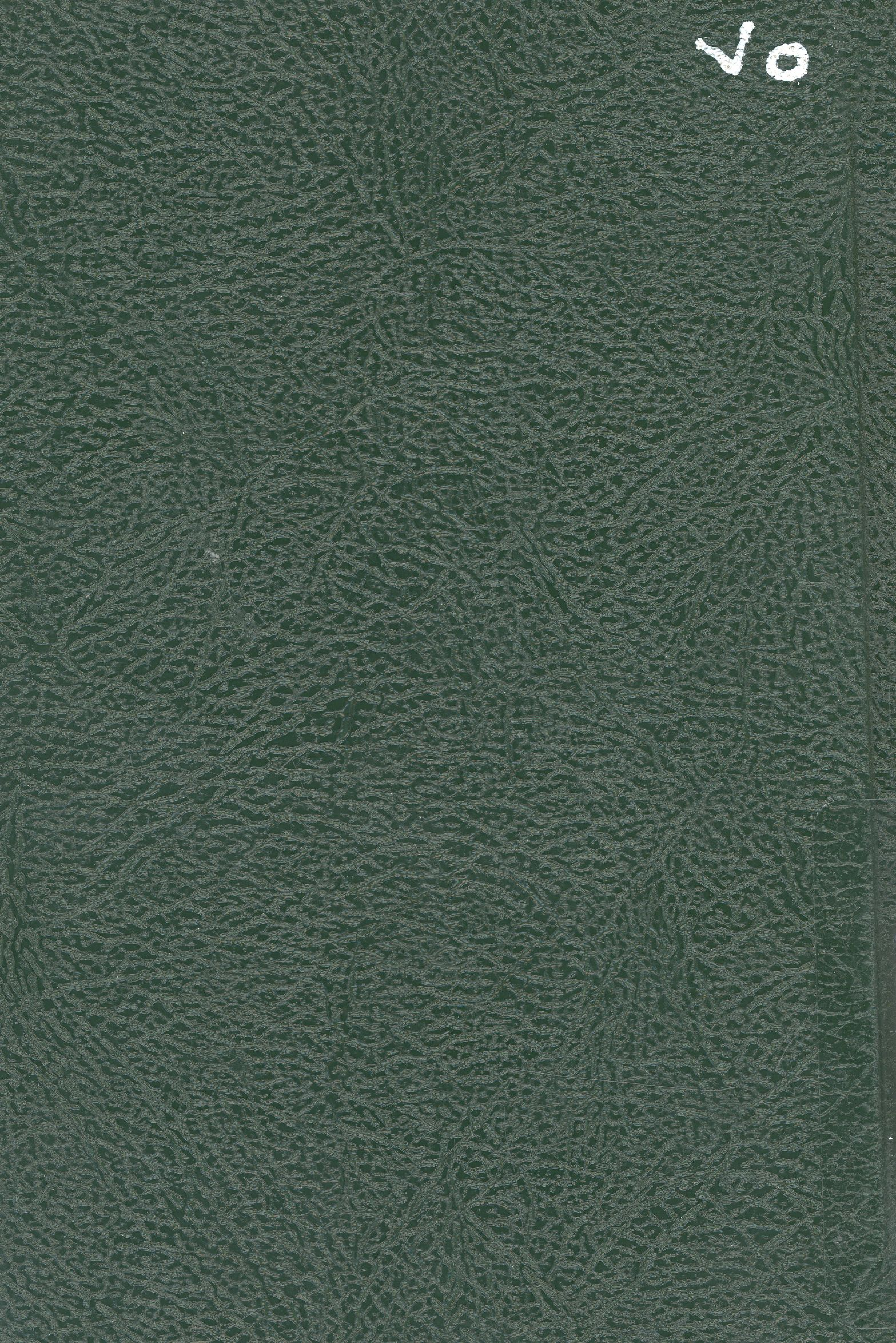
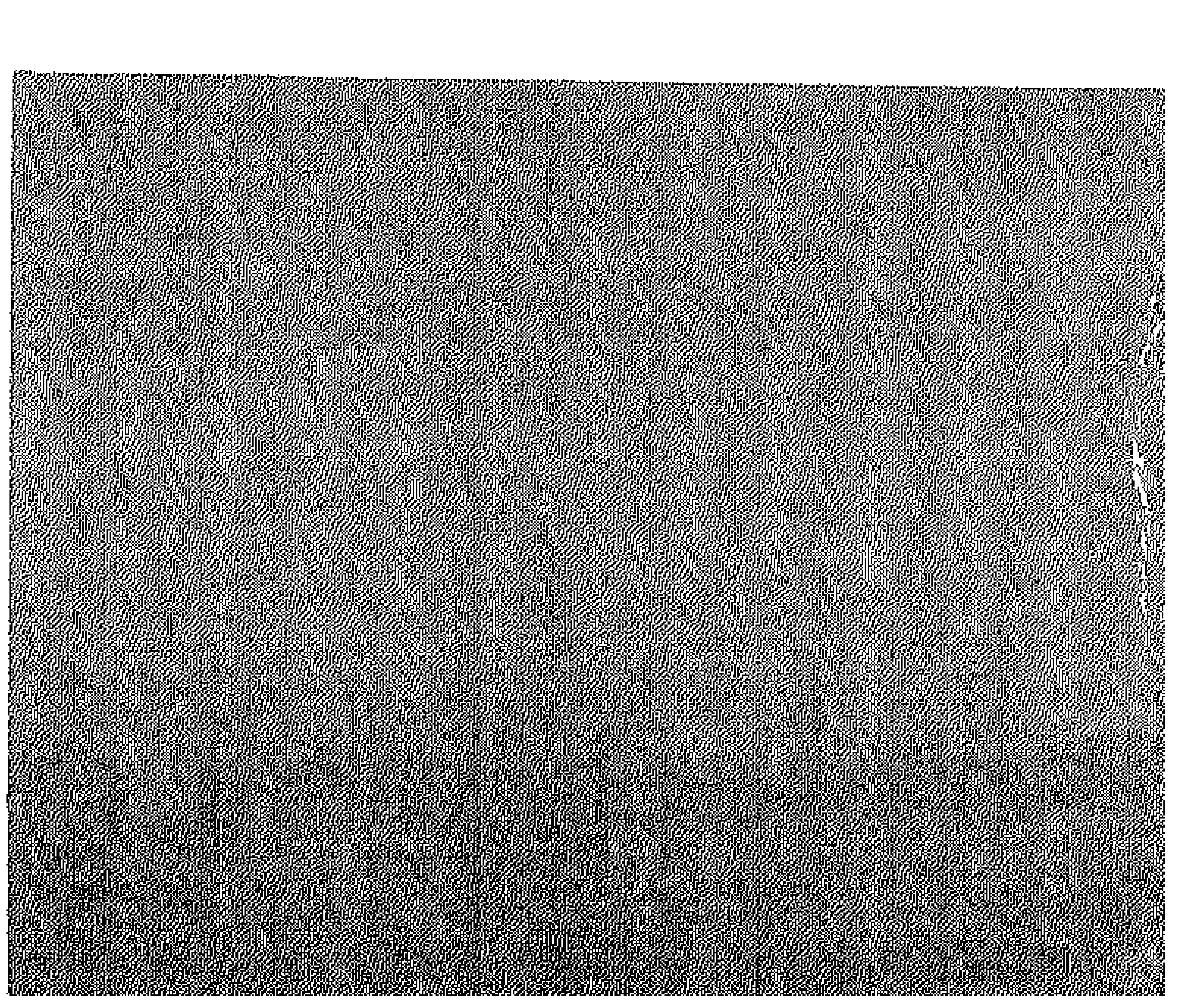




نساء ورجال

علاء الدين وحيد





نساء ورجال

نساء ورجال

علاء الدين وحيد

دار سنابل للنشر والتوزيع

المنصورة ١١٢ شارع السكة الجديدة

شخصيات نسائية
فى حياة فولتير

"كان ضعيفاً فى الحب.قوياً فى العمل"

أندريه موروا

(١)

لا يزال إسم الأديب الفرنسى الكبير فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) إلى اليوم بعد أكثر من مائتى سنة على وفاته يخفق فى العالم كله .. مؤثراً فى الملايين من القراء فى الشرق والغرب. يقول أندريه موروا عن فولتير: "إذا كان القرن السابع عشر ينسب إلى لويس الرابع عشر فإن القرن الثامن عشر ينسب إلى فولتير. وفى الحق إنه لا يوجد أى عقل يمثل ذلك العصر الساطع الحى أفضل من عقله". ويقول طه حسين فى تقديم ترجمته لرائعة فولتير "زديج أو القضاء": "وأنا أحد الألوف أو الملايين من الناس -إن حسن ظننا بالناس- الذين يعجبون بأدب فولتير، وينتهى بهم الإعجاب إلى الفتنة فى كثير من الأحيان، لأن هذا الأدب لم يكتب له الخلود فحسب، وإنما كتب له الخلود والشباب جميعاً. أو قل كتب له الخلود والشباب وملاءمة الحياة الإنسانية على اختلاف العصور والبيئات والأجيال".

ولما كان أدب فولتير هو محصلة تكوين صاحبها نفسه فإلى شخصيته يرجع الكثير الذى أصل ملامح الفنان العظيم. يكتب بريون راسكو فى "عمالقة الأدب": ".. شخصيته بوصفه إنساناً، قد كان لها من السحر والجاذبية ماجعلها تسمو على عدد من أوسع أعماله شهرة -سيظل رمزاً لهزيمة اللحم العليل أمام صحة الروح، كما سيظل أعظم الرموز المرحة جميعاً التى تمثل الحرب ضد التعصب والظلم والقسوة والاستعباد وهو يهاجم أهل الأهواء والمظالم والتميز والخرافات فى صميمهم. لقد كان فولتير الذكاء والجرأة والشجاعة واللوذعية مجسمة- كان أعظم وأنبل شخص فى عصره".

ويؤكد ذلك أديب مصرى هو حسن محمود الذى يقول: "والواقع أن السبب فى شهرة فولتير وفى بقاء اسمه على الزمن -مع أنه نشأ فى القرن الثامن عشر فى زمن كانت فيه التقاليد سائدة- هو أنه كان بطبيعته وربما كان بظروف حياته ساخراً سليط اللسان، لاذعا فى القول والكتابة، ينظر إلى الحياة بغير العين التى ينظر بها أقرانه من معاصريه، فينفذ إلى قلب الحياة وتنهتك أمام عينيه أستارها، وتبدو له فى ثوبها الحقيقى، فيكتب عنها ويصفها وقد زال سحرها وبدا له وجهها بدون تطرية ولا ألوان". أما سلامة موسى فيضعه بين أساتذته الذين شاركوا فى بناء شخصيته. يقول عنه فى "هؤلاء علمونى": "وتغير تاريخ أوربا بحياته إذ نقل هذه القارة من التعصب إلى التسامح ومن التقييد إلى التحرر. وغرس بذلك شجرة

الديمقراطية وحمل على العقائد والخرافات الضارة فحطمها كما بسط الآفاق لحكم العقول .."

ولد فرنسوا مارى أرويه الذى سيشتهر بعد ذلك باسم فولتير .. ضعيف البنية .. حتى خيف على حياته مرات لا عداد لها، ومع ذلك فقد عمر إلى الرابعة والثمانين. ومنذ الثالثة عرف طريقه إلى تذوق الأدب وحفظ قصصٍ لافونتين. وبعد سنوات قليلة بدأ يقرض الشعر هجائياً ساخراً، حتى عد أعجوبة في هذا المجال، وهو لما يبلغ الثانية عشرة. وكان أساتذته اليسوعيون يتبنون موهبته ويذيعون شعره فى كل مكان .. ويلقى الإعجاب والتنويه. ومن هؤلاء الذين أعجبوا بالصبى الشاعر سيدة كانت لها عظيم الشهرة وإحدى نجومٍ المجتمع الفرنسى قبل ذلك، والساحرة التى لعبت دوراً خطيراً فى حياة الملك لويس الرابع عشر .. إذ كانت حبيبته المقربة. والتى كانت "الصنم المعبود" لمشاهير عصرها مثل الكاردينال ريشيليو وموليير وغيرهما، وكان صالونها المشهور أعظم وأخطر صالونات العهد لأنه يضم أجمل الجميلات وأخطر الرجال، ولا يحفل بادعاء المبادئ الأخلاقية! هذه السيدة هى نينون دى لنلكو .. التى كانت فى ذلك الوقت تبلغ الثمانين من العمر.

وتدعو السيدة الكبيرة الفنان الصغير إلى قصرها بصحبة والده فى العماد، وأخذت تناقشه فى الأدب والفكر .. فتجده مع صغر سنه صاحب موهبة فذة بلاشك. ولم تخف تقديرها .. ولم يكن هذا التقدير أدبياً فحسب بل مالياً أيضاً، إذ

أوصت له في ميراثها بمبلغ قليل أنشأ به مكتبة عامرة. ولاريب أن هذا اللقاء أو التعارف الذى تم بين السيدة المشهورة والشاعر الناشئ كان بداية لها مابعدها في حياته. فقد شجعه ذلك في المضى قدماً في اختياره الأدب والفكر والعلم، طريقاً يسير فيه. ويجعل ممارسته لها في قابل الأيام شغل حياته الشاغل. كما أوقفه أكثر من أى شئ آخر على أهمية مايشغل أصحاب القصور في الحياة الفرنسية، من الاستحواذ وحدهم على كل خيرات البلاد .. التى تشيع حالة التدنى والعوز واللاكرامة، لا بالنسبة إلى الإنسان الفقير فحسب بل المنتمى مثله إلى الطبقة المتوسطة.

(٢)

عرف، فولتير منذ صغره بالتمرد والاندفاع والجرأة .. سواء في الجد والهزل. وأمدته ثقافته المبكرة وحديثه اللبق ومعرفته بطبائع النفوس بالقدرة على النفاذ إلى المجتمعات الراقية، وأن يكون مقبولاً فيها. وأثيراً لدى النساء خاصة هؤلاء اللاتى "يتمحكن" فى الشعر والأدب، ويزعمن أنهن شاعرات وأديبات. فكان فولتير يقوم مشكوراً في الخفاء بالتأليف لهن، أو إعادة كتابة أعمالهن من جديد!

ولعل أولى مغامراته النسائية المثيرة التى لفتت إليه الأنظار .. إلى الشاعر الهجاء الذى كانه في صباه .. هى التى وقعت في هولندة. كان أبوه في العماد شاتونف قد عين سفيراً لفرنسا في لاهاى، واصطحب معه فولتير الذى لم يبلغ وقتذاك

العشرين من العمر وصيفا له. ورغبة في الاطلاع على أحدث ماأصدر الوطن من كتب، ذهب فولتير إلى إحدى المكتبات التي تستورد الكتاب الفرنسي خاصة. وكانت صاحبتها الفرنسية امرأة مشاكسة عرف بحكم عمله في السفارة قصتها. فقد اختلفت السيدة دينوييه في بلدها مع زوجها، وتفاقمت حدته إلى درجة هروبها من رحلها مع بناتها إلى لاهاى .. حيث افتتحت مكتبة تبيع فيها هي وبعض بناتها.

والانطباع الأول الذى تركته السيدة لدى فولتير برغم جمالها .. أنها إنسان قوية الشخصية حاسمة لا تنقصها القسوة التى تبدر منها بين الحين والحين. ومع ذلك أحب فولتير المكان، وأخذ يتردد عليه كثيراً. فقد جذبه وجه صبوح فيه عذوبة مسكرة، وكانت أولمب ابنة صاحبة المكتبة .. التى أطلق عليها بميت. وعثر كل منهما فى رفيقه على نصفه الآخر الذى ينقصه ويسعده ويجد فيه حلاوة الدنيا. سحرت الفتاة بفولتير تماماً .. فشخصيته غير العادية تملك على المرء نفسه وتجرف الحوائل المصطنعة التى تقوم بين الناس. وكلماته التى تنبض بالصدق .. تشيع فى الأنثى المودة والحنان والتفاهم .. كما أن أسلوبه الساحر يكاد يفقد الفتاة عقلها. يكتب إليها فولتير يوماً: "نعم ياعزيزتى بميت، سأحبك دائماً، إن العشاق الذين هم أقل إخلاصاً منى يقولون قولى هذا، ولكن حبهم ليس كحبى الذى يقوم على التقدير الكبير لك، إنى أحب فضائلك بقدر ماأحب شخصك".

ارتاحت الأم إلى الشاب الفنان المثقف، الذى يصول ويجول في مختلف القضايا. وأصبحت ترحب به كصديق لا كمتردد أو مشتر. ولكنها ماكادت تكتشف أن الشاب لم يرع الصداقة ويعبث مع ابنتها حتي كشرت له عن أنيابها. فهى لم تغامر بهجر وطنها والفرار من زوجها لتسمح للعابثين أن يفسدوا فتياتها. كما كانت الأم تتطلع إلى أن تزوج ابنتها من ثرى تستفيد هي منه أيضاً .. وليس من صعلوك فقير مثل فولتير لا يملك شيئاً. ولم يفلح الإنذار، وظل الشاب المفتون سادراً في غرامه .. كأنه يجب على الدنيا أن تنحنى لمغامرته وتئد تقاليدها قرباناً لحبه. وكان لابد للأم أن تتحرك، فتشكوه إلى السفير .. الذى يغضب للعبث، فيأمر باعتقاله. ولا ييتئس فولتير هو يقبل على العقاب مرحباً .. فكله يهون فى سبيل من يهوى! "ليس هناك ياعزيزتى بميت مالا أتعرض له من أجلك، وإنك لتستحقين أعظم من ذلك بكثير"!

وإذ تهون الفتاة الأمر على نفسها، وتتصبر وهى تبكى فى انتظار انقضاء الأيام الطويلة التى قضى بها على حبيبها. فإن فولتير العاشق المتيم الذى ألهبه الحب بسياطه لا يستسلم للأمر الواقع، ويفكر فى حيلة تقرب إليه البعيد وتمكنه من أن يلتقى بصاحبته. يرشو الحارس .. ويتسلل فى ساعة متأخرة من الليل من محبسه، حيث يذهب إلى فتاته. ويتكرر ذلك. وبينما الأم التى تجهل مايدور فى الخفاء، وتعرف انشغال ابنتها بفولتير .. تحاول بشتى الطرق أن تبغضها فيه، كانت الثانية مذهولة بجسارة حبيبها فى سبيلها .. التى تعرضه كل

ليلة للخطر والعقاب، غارقة في حبه أكثر .. تضعه في حبة عينها أعمق وأعمق!

ولا تلبث عمليات التسلل الليلى أن تفتضح، ويضيق الخناق على السجين حتى لتعد أنفاسه .. ومع ذلك يبحث فولتير عن ثغرة ينفذ منها إلى ارتشاف كؤوس الهناء مع حبيبته. ويهديه طول البحث إليها .. إن الاهتمام كله منصب عليه هو وحده في دخوله وخروجه، أما القادم إليه والزائر له .. فلا قيود عليه. وجاءته الفكرة .. إذا لم يستطع هو الذهاب إلى فتاته، فلماذا لا تجئ هى إليه فى سجنه؟! وبالحيلة والرشوة يتخطى كل العقبات. يبعث إلى بميت التي تتنكر في شكل شاب ببذلة فارس، وبذلك تتمكن من أن تزوره وهما في منتهى الاطمئنان. وفي رقابة الحارس الذى يبعد أية عين متطفلة .. يقضيان أمتع لحظات الغرام! ويسجل فولتير هذا الحدث في قصيدة عذبة يقول فيها: "وأخيراً وقع بصرى عليك، أيتها الحبيبة الظريفة .. يوم كنت متنكرة في زى فارس، فاعتقدت أننى أرى فينوس نفسها في صورة الحب"!

ويظن العاشقان أن الأمور دانت لهما إلى الأبد، وأن الأنظار عميت عنهما، وأن خدعتهما لها القدرة على الانطلاء الدائم على الناس. ولما كان هذا غير صحيح وضد طبائع الأشياء، فقد انكشف المستور يوما .. ووجد السفير الفرنسى أن لا أمل في مقاومة اعوجاج فولتير، وأن الشاب المندفع وصمة في جبين الشرف الفرنسي. كما عمل حساباً لثأر أم الفتاة وهى على ذلك لقادرة، ولو حدث ذلك لأثارت من

الأعاصير والزوابع مايطيح به هو نفسه. والحل المناسب إبعاد العاشق عن هولندة كلها وإرجاعه إلى باريس .. وقد كان.

ولكن القصة لا تنتهي فصولاً .. ففولتير يرفض أن يسدل الستار على حبه. وكيف يفعل وهو يشتعل غراماً وهياماً .. ويذوب وجداً واشتياقاً. ولم يفلح البعد فى تخفيف شدة وجده، ويهديه تفكيره النارى الذى لا يحمل عاقبة لشىء إلى اختطاف الفتاة من لاهاى؛ يقوم بالعملية بعض القسس من أصحابه تحت زعم أن الأم تكره ابنتها على اعتناق مذهب مسيحى آخر .. وهو عمل يقارب الإلحاد عند بعض رجال الدين. ومن الغريب أن الشاب وجد من يشاركه الرأى والمؤامرة. ولولا أن السفير علم بالمؤامرة، وعمل على فشل الخطة الحمقاء خوفاً من إغضاب السلطات فى لاهاى .. لتمت العملية بنجاح .. واختطفت حبيبته وقدمت إليه فى باريس على صينية من الذهب!

(٣)

ويتكرر دخول فولتير السجن بسبب العشق. فإذا كانت المرة الأولى فى لاهاى فالثانية فى باريس. ولكن بسبب عشق أكبر .. الوطن والحرية والعدالة. يكتب قصيدة هجائية ضد الظلم والظالمين، فيأمر الوصى على العرش فيليب دوريان باعتقاله فى الباستيل لعام ونصف. وكأن عاطفة الغرام المشتعلة أهلته ليزداد اشتعالاً فى عاطفته الوطنية؛ فيكافح الاستبداد والمستبدين بلا رحمة، فيعاقب بالنفى أو بلفظ أرق

بمغادرة البلاد. ويختار انجلترا منفى. ولكنه لا يمكث طويلاً حتى يعود ثانية إلى وطنه متخفياً في البداية، ثم يجهر بظهوره .. وتتعامى السلطات. فقد أخذ اسمه ينتشر بشكل أوسع وأصبحت له شعبية كبيرة وسط القراء ورواد المسرح بما يؤلف من كتابات ويقدم من مسرحيات.

ويعرض له فى هذه الأثناء حادث عام، يهتز له فولتير ويغضب .. لأنه يتصل بالمبادئ التى يؤمن، الحرية والعدل الاجتماعى اللذين يفتقدهما المواطن، ويعكس أيضاً نظرة ازدراء المجتمع الإقطاعى لعالم الفن الذى ينتمى إليه. توفيت ممثلة مشهورة كان فولتير يعجب بها هى أدرين كيلوفرير .. ولأنها لم تعجب الكنيسة فقد تبرأت منها الكنيسة، الذى يعنى عدم إقامة الطقوس الدينية الأخيرة لها. مما يعطى انطباعاً لدى الجماهير خاصة المتدينة .. أن الممثلة كافرة! ولا يشارك فولتير فى تشييع الجنازة فحسب متخذاً موقف الإدانة للعقول المتحجرة، بل يكتب قصيدة ساخرة هازئة تعنف بأصحاب هذه العقول ..

آه. هل أرى دائماً أمتى ضعيفة
غير واثقة من رغباتها تعيب ماتعجب به
وأخلاقنا وقوانيننا فى تعارض دائم
والفرنسى الطائش تطويه دواما
دولة الخرافات؟
ماذا، ألا يجرؤ الناس على التفكير
إلا إذا كانوا فى انجلترا وحدها؟!

وكانت شجاعة كبيرة من فولتير أن يتصدى فى ذلك الوقت البعيد لهذه القضية .. في وسط رجعي يناوئ الأفكار الحرة .. ولا يتهاون إزاء من يثورون على قيمه. كان فولتير يدرك هذا ويدرك أن عليه أن يدفع الثمن. ويضطر إلى الابتعاد وقتاً عن باريس حتى تهدأ الضجة التى أثارها فى المجتمع.

(٤)

المركيزة دى شاتليه .. أهم امرأة في حياة فولتير .. بل بحسبان السنوات الطويلة التى قضياها معاً، وتبلغ أربعة عشر عاما .. هى عشقه الأكبر والأكثر استمراراً، وإن انتهى نهاية مأساوية. التقى بها وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره، بينما كانت تصغره باثنى عشر عاماً .. جميلة الملامح ساحرة الشخصية ذات حضور قوى. ويبدو أنها كانت كبيرة التقاطيع، فمن وصف مدام دى دفاندل لها .. "طويلة نحيلة، غير وركاء، مترهلة الثديين، غليظة الذراعين، كبيرة الساقين، ضخمة القدمين." كما تصورها ابنة عمتها مدام دى كريلى: "عظيمة الجثة فى كل تقاطيعها، وهى آية فى الخرق، وكان جلدها مثل مبشر جوز الطيب"! وسواء أصح ذلك أم لم يصح، فقد كانت بجانب ذلك مثقفة ثقافة أدبية وعلمية. فهى مع حبها للفكر والشعر، تهوى العلوم والرياضة والجبر، وتشغل وقتها بإجراء التجارب المعملية. ومن الطريف أن المرأة التى وجد فيها فولتير كل مايبغى في الأنثي والمثقفة، واستمرت علاقته القوية الحميمة بها أعواماً طوالاً .. كانت

متزوجة! ولا غرابة أن يفرز العصر المضطرب قبل الثورة، من الأوضاع المتردية للمجتمع، والإنحلال الذى تعيشه الطبقة العالية .. كل مايبعد عن تعاليم السماء. والذى يسمح بقيام علاقة آثمة بين رجل وزوجة آخر على مرأى من الثانى، بل وعلى رؤوس الأشهاد. وهكذا عاش فولتير قصة حبه بمباركة المجتمع!

ولا تخفى المركيزة شغفها بالرجل فى الكاتب الكبير .. إنها لا تتطلب فيمن تحب الجانب الروحى لأنه خارج دائرة قيمها واهتماماتها المادية. بل تلتمس فى الحب الجنس والفكر. وطبيعتها النارية تلهبها بسياطها، وتسوقها إلى كل مايعج به عالم الشهوة من لذة. ويتفق ذلك تماماً مع فولتير الذى يسعد له. ولا ريب أن تكوينهما المتشابه هو الذى أتاح الاستمرار لعلاقتهما الطويلة. ولا يعنى هذا أن الأعوام مرت على وتيرة واحدة من الهناء، لا يشوبها مايعكر، وأن الأيام لم تلد لهما إلا السعادة الصافية. فدوام الحال من المحال! والبقاء أو الإبقاء على مد دون جزر من قبيل المستحيلات. فما أكثر ماغضبا وتنافرا وتشاجرا، حيث لا يراهما أحد أو بين الناس. ويكون الصفح والعودة إلى الوئام .. أسرع من رد الطرف .. يفرض ذلك الإخلاص المتبادل. ولكن عندما ينكمش هذا الإخلاص لسبب أو لآخر، تضطرب النفس ويفقد الحب القديم بعض مبرراته . ويقدم صاحبه على الخيانة. ومن الغريب أن الداء جاء من حيث كان الدواء، كما يكمن الموت فى الحياة! فالشهوة التى كانت الهدف والوسيلة ومثار الرغبة والإعجاب

لدى كل من العاشقين، هى التى قضت وأفضت إلى النهاية. وكان الذى أسرع إلى ذلك حواء لا آدم!

بلغ فولتير فى ذلك الحين الخامسة والخمسين من العمر .. وقد أصابه مرض عرضه لضعف عام، قعد به عن مزاولة الحب مع صاحبته .. وفرض عليه لأول مرة فى حياته، أن يكون حبه عذرياً؛ وأن لا تعتمد علاقته بالمرأة على الجنس! و لم تستطع المركيزة الشهوانية صبراً، وتغاضت عن أى اعتبار. واستهانت إلى درجة اللامبالاة بكل الأشياء الجميلة الحميمة التى ربطتها بفولتير طوال سنوات عديدة وحتى اللحظة. واندفعت بلا تفكير إلا فى سبيل إطفاء النار المستعرة .. إلى أحضان رجل آخر. ويقع اختيارها على ضابط شاب وسيم مفتول العضلات يقوم بالمهمة، وهو سان لمبير!

ومن المفهوم الغربى الذى يقدس حرية المرء فى جسده بغض النظر عن أية قيمة أخرى ويفرق بحسم فكرياً بين الأشياء، لم تجد دى شاتليه مانعاً من أن تستجيب إلى مطالب الجسد عند صاحب ثان، بينما هى لا تزال مشغولة بصداقة أو حب فولتير .. لا يمكن أن تستغنى عنه أو تنفصل. ومن الطريف الذى يذكر فى هذا الصدد، أن الفنان العظيم بدأ حياته مع المركيزة من موقف مشابه تماماً. فقد كان ضمن استجاباتها له .. عدم قدرة زوجها على القيام بواجباته الزوجية .. وكما تدين تدان. وبمحض الصدفة اكتشف فولتير مايدور، كانت دى شاتليه مع سان لمبير فى وضع يغنى عن أى شرح أو دفاع. وأذهلته المفاجأة. فعلاقته القوية الطويلة

للمرأة .. لا تدع مجالاً للشك فى أنها أبدية، لأن مايحكمها هو الحب والتفاهم والتعاطف .. والإخلاص أيضاً. وهى أشياء تنفى تماماً إمكان الإنقلاب إلى الضد. وتدهش المركيزة لغضبه!

يصور أندريه موروا فى كتابه "فولتير" -ترجمة عبد الحميد الدواخلى- هذا المشهد لحوارهما:

- ماذا؟ أتريدين أن أثق بك بعد الذى رأيته؟
- لا، إنى أحبك دائماً، ولكنك تشكو منذ زمن من أن قواك قد انحلت وأنك لم تعد قادراً على شىء. وإنى لشديدة الحزن لذلك، ولا أرغب إطلاقاً أن تموت، لأن صحتك عزيزة على. وقد أظهرت بدورك حرصاً شديداً على صحتى. وإنك توافقنى على أنك لا تقوى الآن على ماأطلبه إلا إذا تحملت خسارة جسيمة. فهل يحق لك أن تغضب إذا تولى هذا عنك أحد أصدقائك؟!
- آه! ياسيدتى، أراك على حق دائماً. وإذا كانت الأوضاع يجب أن تكون هكذا، فلا ينبغى على الأقل أن تقع عيناى على مايحدث!!

وفى اليوم التالى يذهب العشيق الجديد إلى فولتير .. معتذراً!! ويهون المفكر الكبير عليه الأمر قائلاً: "بنى، لم أعد أذكر شيئاً مما حدث وأنا الذى أخطأت. أنت فى السن السعيدة التى يحب فيها الإنسان ويحب. فتمتع بهذه اللحظات التى لا تدوم طويلا" ..! وهكذا ظهر أن دى شاتليه تفهم

فولتير أكثر من فهمه لنفسه، لأنه تعايش مع الموقف وصفح عنها. يقول سليم سعدة: ".. وقد لاحظ لوبحشام أن الحادث الذى كان يجب أن يفرق بينهما بطبيعته قد زاد فى التقريب بينهما. وأعجب فلوبرت برقة شعور فولتير لأنه يضحى بجاهه وكبريائه فى سبيل ماكانت تشعر به خليلته من حب لغيره. إن فلوبرت يعتقد أنه لايوجد بين الرجال كثيرون أمثال فولتير أو يحذون حذوه! ولكنه كان هائماً بحب مدام دى شتاليه إلى حد يثير الإعجاب بتلك التضحية وهذا الإخلاص .."

ولا يلبثا أن يتصالحا، ويعودا سيرتهما الأولى معا.

وظن أبطال الرواية جميعاً بعد انتهاء الأزمة، أن كلا سيعود إلى متابعة دوره كما كان من قبل، بلا زيادة أو نقصان. وكان للقدر موقف مخالف له مابعده، لم يطف أبداً بالأذهان وأذهلهم تماما .. ظهر الحمل على دى شاتليه لأول مرة فى حياتها، وهى التى عاشت دهراً طويلاً مع روجها ومع فولتير بلا إنجاب. ومع الفرحة الشديدة التى انتابتها فى لحظات الاكتشاف الأولى، شأن كل أم .. ينقض عليها بغتة فزع مبهم مسيطر لا من حيث الفضيحة المنتظرة، فهذا شىء فى المجتمع المتحرر أو المنحل لا أهمية له. فالكل سواء فى البعد عن الدين والحلال .. بل من ناحية مايتردد عن خطورة الحمل فى السن المتأخرة بعد الأربعين، وهى الآن فى الرابعة والأربعين. ويتخايل شبح الموت أمامها ويخيفها ويكاد يشل حركتها.

وتسرع إلى فولتير ملقية بهمها .. ويكون عند حسن ظنهـا به. فبعد أن يهدئ مـن روعهـا ويعيدهـا إلى السكينة، يلقـى إليها بما خطط. فلابد أن يعترف بما تحمل ليس أبوه الحقيقـى، بل الأب المزيف الذى ليس له فى الثور أو الطحين .. زوجهـا نفسه! هكذا تقضى التقاليد السـائدة فـى رأيـه .. وهـو الـذى كان يحطم هذه التقاليد. كما يجـب أن تسـرع فـى استدعاء صاحبها الأب الشرعى لفرض الأمـر الواقـع علـى المركـيز دى شاتليه، ويسر سان لمبير بالطبع بالترتيب الذى تفتق عنـه ذهـن فولتير، ويخرجه من القضية .. كالشعرة مـن العجـين. يصـور أندريه موروا بأسلوبه الساحر الرشـيق فـى "فولتير"، تشـكيل المؤامرة الصغيرة، بقوله: "وأعد كل شىء كما يعد فـى ملهـاة مسرحية: فطلب السيد دى شـاتليه بحجـة تنظيـم أمـر عـائلى. فلما جاء إلى القصر قوبـل بمظـاهر الحفـاوة الشـديدة. وكـان فولتير وسان لمبير حاضرين، كما دعى أناس من الجيران، وأقيم حفـل بسـيط وتنـاول الحـاضرون العشـاء. فـأكل السـيد دى شاتليه كثيراً وشرب كثيراً، وأخذ يقص على الحاضرين أخبـار حملاته الحربية، وهـم مصغـون فـى انتبـاه شـديد. فسـر بهـذا سروراً عظيماً. أما مدام دى شاتليه فقد تبرجت تبرجـاً شـهياً أحتذب ظرف الزوج فاعتقد أنه لا يـزال شـاباً. وبعـد ثلاثـة أسابيع من هذا السرور، أخبرته الزوجة أخـيراً باعتقادهـا أنهـا حبلى وأنها أحست بعض علامـات الحمـل، فعانقهـا وقبلهـا، وأخذ يذيع الخبر بين النـاس فـى فخـر شـديد .. لقـد أنقـذت سمعتها"!

وبالرغم من أنـه تم كـل شـيء وفـق مايشـتهى المتـآمـرون، وهيئت كل وسائل الراحة للحامل، إلا أن مدام شتاليه كـانت فـى شـدة الوهـم .. تتخيـل دائمـا أنهـا ستموت فـى عمليـة الوضع. ومع ذلك مرت شهور الحمـل بسـلام، وهـى تقضـى أياما كما تعودت. فى النشـاط الفكـرى والعلمـى، وبصحبـة فولتير دائماً. تتخذ من حملها مع ذلك مادة للتسلية والدعابة، كأن غيرها هى التـى ستلد. وتحـدث عمليـة الـولادة بشـكل أبسط مما يتصور .. لم تحملهـا جهـداً أو ألمـاً. كـانت تـدرس بعض الجوانب فـى نظريـة نيوتـن، وتكتـب مذكراتهـا عليهـا. وأحست فجأة بتقلص ضئيل، وماكادت تنادى وصيفتها التـى مددتها على السرير، حتى ولدت طفلتهـا؛ وأخذتهـا الدهشـة للبساطة الشديدة التى أنجبت بها، وتمنت لو أمكنهـا أن تفعـل ذلك بهذه الطريقة عدة مرات.

وكانت الولادة نهاية لا بداية .. فقـد مرضـت وتدهـورت صحتها بسرعة .. وقف إزاءهـا الطـب عـاجزاً. ومـاتت فـى اليوم السادس. وحدوث كل شىء بسرعة أذهل فولتير، وهـو يبكى صاحبته بكاء مراً طويلا. ويتهم سان لمبير بأنه هو الذى قتلها عندما حملت منه. وقد واجهه بهذا الاتهام وجهاً لوجه، يوم وفاتها .. وهو يقول له: "آه! ياصديقى .. لقد قتلتها أنت فحرمتنى منها".

وظل فولتير يذكر حبيبته هذه وحدها إلى آخـر أيـام حياتـه .. ولا عجب، فهى كما يقول عباس محمود العقـاد .. "المـرأة الوحيدة التى شغلت باله وعلقت ذكراها بقلبه ..".

بودلير

الشاعر المغضوب عليه وجناية أم

اختلاف الناس بشأن الشخصيات العامة، أمر بدهي. لأنه يتبع استقلال الرأى وحرية التفكير وتعدد زوايا الرؤية وتنوع الثقافات. وفى معظم الأحيان لا يصل هذا الاختلاف إلى درجة التناقض. ولكن قليلا من الشخصيات المشهورة مثل الشاعر الفرنسي الكبير شارل بودلير .. لا تتقارب آراء الناس فيها بل تتباعد إلى أقصى الأطراف! فالبعض يرفعه إلى سماء العبقرية، والبعض الآخر يخفضه إلى الدرك الأسفل من التفاهة!

وإلى المرأة يعزو تشكيل جانب كبير من ملامح بودلير سواء في ارتفاعه أو انخفاضه! يقول دكتور رائف بهجت في "روائع الشعر الفرنسي":

"أما شارل بودلير الإنسان فما أكثر مآدين وانتقد في الدراسات التى تناولت حياته كأنما أرادوا أن يطمسوا ذهب أشعاره البراق بصدأ شذوذه كما يصفه البعض، ولكن إذا كان كل من أحب أمه ومات بين ذراعيها يعانى من عقدة

"أوديبس" فبودلير كذلك. وإذا كان كل من وصف العنف والبشاعة فى الحياة واعتبر المرأة ركناً أساسياً من أركان الحياة "سادياً" أو شاذاً فبودلير كذلك. بل على النقيض من تلك الآراء المبالغ فيها، فشارل بودلير يعد نموذجاً للإنسان الذى عانى، أحب وكره، عطف وحقد، وتوج النساء بأشعاره ثم مات معذباً تعساً كأغلب البشر"!

تبدأ ملامح الإنسان فى التكوين، قبل أن يولد ويعرف بإسم ويضيف إلى تعداد وطنه والعالم واحداً! وبمجرد خروج الطفل من رحم الأم عجينة حمراء من اللحم .. لا تدرى من أمر نفسها شيئاً. يكون صاحبها فى ذات الوقت وهو لا يعرف .. قد تدخلت فى مصيره عناصر جاءته من أبويه، وحملها فى دمه .. تشكل مظهره الخارجى وعالمه الداخلى. ثم يأتى تأثير دور الأسرة والمجتمع فى إضفاء اللمسات الأخيرة على تكوينه. ليبقى له بعد ذلك مايعادل هذا كله؛ يتفق معها أو يختلف. وهو إرادته ومثله الخاصة ومدى قوته أو ضعفه، التى تتيح له أن يدخل حلبة الصراع .. ليفوز أو يهزم.

فالطفل الفرنسى شارل بيير بودلير الذى ولد فى أبريل ١٨٢١. مرتبط أشد الارتباط بما حدث قبل سنوات طويلة جداً من مولده. والأيام تدفع بكل من والديه فى اتجاه الآخر.

أما الأم فقد وجدت نفسها .. فرنسية ولدت فى انجلترا. التى اتخذتها الأسرة مقاماً لها بعد أن انتقلت أو هربت من فرنسا .. بعد جحيم الثورة. إذ كان أبوها ضابطاً فرنسياً من

أنصار الملكية. وبعد أن هدأت الأحوال، عادت كـارولين إلى باريس .. شابة يتيمة فقيرة. ألحقها أحد أصدقاء الأب بعائلته .. رفيقة لبناته الصغيرات. وبذلك أنقذها الرجل الطيب، من مصير لا يعلمه إلا الله.

وسعدت كارولين بموقعها، وبجو الترف الـذى تعيش فيـه. بعد حياة الشظف التى عـانت منهـا قبل ذلك فى المنفى الاختيارى فى انجلترا. وبرغم ذلك فهـذه السعادة نفسها .. كانت أهم أسباب الضيق الذى ألم بها، والأسى الذى هاجمها ولم تملك له رداً؛ والواقع يفرض عليها بلا رغبة منها أن تضع نفسها موضع المقارنة .. بين حظها فى الحياة وحظـوظ بنـات كافلها.

فالهناء الذى يرتعن فيه بكل مسبباته من أسرة وثراء وتـرف .. وهى أشياء محرومـة منهـا. عملـت علـى أن تفسـد عليهـا حاضرها. ولكن الفتاة كانت أذكـى وأطيـب مـن أن تنسـاق فى الكفر بالنعمة أو الحسد أو تجاوز حدودها.

وإذا استطاعت كـارولين من هـذا الجـانب أن تنجـح فـى الصراع .. وتتجنب ماينغص. فهناك أمر آخـر أكـثر أهميـة، كـان يجثـم علـى أيامهـا .. وتكـاد تفقـد معـه السـيطرة علـى نفسهـا. وهو مستقبلها، أو بالأحرى موضوع زواجها. فهذه القضية كانت شغلها الشاغل، خاصة والسنوات تمر بلا رحمة. ولا يبدو فى الأفق مايبعث على التفاؤل.

نعم إن الأحلام تداعبها، وتحقق لها ماتتطلع إليه من المستقبل الناعم. الذى لا يقل ترفاً عما تتمتع به فتيات الأسرة، إن لم يزد؛ ولكنها مجرد أحلام لا سند لها من واقع. ويزيد من كربها، إدراكها أن حالتها ليست خاصة بل عامة. فالفقر السائد فى البلاد بعد الثورة مكن للقيم المادية فى نفوس الناس. وأشاع تكالباً على المال وتهافتاً على الثروة. مما يجعل واحدة مثل كارولين لا تملك ماتقدم للزوج من صداق أو "دوطة". لا أمل لها فى زواج مناسب أو زواج على الإطلاق!

وهكذا تأخر العمر بالفتاة الحسناء الفقيرة إلى الخامسة والعشرين .. وهى بلا زواج. إلى أن تقدم إليها فرنسوا بودلير، ومع الفارق الكبير فى السن .. وافقت على الفور.

ولم يكن الخوف من العنوسة وحده، هو الذى أسرع بكارولين إلى القبول؛ بل كان هناك عوامل اخرى لا تقل أهمية شاركت في ذلك. ففرنسوا ليس غريباً عنها، فهى تعرفه منذ أن عادت من انجلترا. لأنه صديق الأسرة التى تعيش هى بين ظهرانيها. وهو أرمل منذ وقت طويل، له ولد تربيه جدته فى مدينة بعيدة. مهذب رقيق، وماأكثر ماداعبها فرنسوا. كما أنه صاحب ضيعة ومعاش طيب. وهما يتفقان فى حب ملذات الحياة من مأكل ومشرب وملبس.

وكان الرجل المجرب صاحب خبرة مع المرأة. مما جلب مسرات هنيئة إلى كارولين التى سعدت برجلها. وبذلك

تضاءل الفارق فى العمر بالنسبة إلى الزوجة الشابة، وانزوى متوارياً فى ركن بعيد من أعماقها. لا يطل عليها إلا فى لحظة ضيق. ومع ذلك، كان هذا الفارق يسيطر عليها فى جانب معين، تبلور في موقف .. اتخذته باستسلام تام. وهو إلغاء التفكير في الإنجاب.

هل لأنها تستبعد على الرجل العجوز، أن يثمر وينجب؟ أو لأنه من الظلم إنجاب طفل لليتم، وأبوه شيخ فى أخريات حياته. ولن يتاح فى أغلب الأحوال أن يربيه؟ أو لأن كارولين ذاتها لغاية خفية غير مقتنعة فى قرارة نفسها بفرنسوا، وتحلم بزوج شاب بعد أن يموت الأول .. تلد له؟

مهما كان الباعث، فقد فوجئت كارولين يوماً .. أنها حامل. واستشاطت غضباً وحنقاً وضيقاً. بزوجها ونفسها والطفل المنتظر بشكل أفزع فرنسوا الذى يعمل على تهدئتها بلا فائدة. فهى لا تريد أن تنجب أو تصبح أماً. لم تسع إلى ذلك أو ترحب به، فبأى حق إذن تضطر إلى ذلك؟! وبالرغم من أن فرنسوا كان سعيداً بحمل امرأته، فرحاً أن يكون أباً للمرة الثانية .. وأن تنجب له كارولين. إلا أنه من فرط حبه لها، ورغبته فى إرضائها .. ترك لها حرية الاختيار.

ولكن كيف السبيل إلى التخلص من الحمل؟ هناك عدة وسائل يمكن لكارولين أن تهتدى إلى أحداها. ولكن الزوجة الشابة كانت تفزع من فشل المحاولة. ويتغلب هذا الفزع على بغضها للإنجاب .. وتلد طفلها.

وفى هذا الجو الكاره لوجوده .. يتنسم شارل أيامه الأولى. التى يعبر عنها بعد ذلك بطريق غير مباشر فى إحدى قصائد "أزهار الشر" بقوله:

عندمـــــا قضت الإرادة السماويـــــــة
أن يخرج الشاعر إلى هـــذه الدنـــيا الكليـــلة
روعت أمـــــــه وصبت اللعـــــــنات
ولوحت بقبضتها إلى السماء متوسلة مستعطفة قائلة:
لماذا لم أحمل بين أحشائى وكـــراً مـــن الحيـــات
بـــدلاً مـــــن هــــذا الشاعـــر المســـخ!
لعــــــنة الله على ليـــلة من ليالى الملـــذات العابرة
حملـــــت فيـــها ماكـــفر عـــن سيئاتـــى

(٢)

السنوات الأولى من حياة الطفل هى ألصق أيامه بأمه. فهى الإنسان الأول وربما الأخير الذى يلجأ إليه ويطمئن وينام على صدره. ويكون الأب حتـى بعـد أن يعـى الصغير قليـلاً فـى المرتبة التالية من اهتمامه. بعد أن تكون الأم قد استولت على أغلب حبه ونبـض قلبـه. هـذه القـاعدة اختلفـت بالنسبة إلى شارل بودلير، فتبادل الأب والأم المواقع.

فمع أن كـارولين قـامت بإرضاعـه، إلا أنهـا فعلـت ذلـك كارهة .. واجب مر لا مفر من أدائــه، علـى أى وجـه كـان. بينما فرنسوا ينهض مرحباً فرحاً، بما يحتاج الطفـل مـن أشياء

كثيرة. وهكذا انعكست الآية. فلا عجب أن يكون وجه الأب، هو ألصق الوجوه بالطفل. فى نهاره وليله، وفرحه وحزنه. وأسرع يد تتقدم إليه، تسعف وتعين .. وتلاعب وتداعب.

ولا يختلف الأمر والطفل يشب عن الطوق فيكون الأب هو أيضاً رفيقه طوال ساعات اليوم .. فى البيت وخارجه. ومن هنا تلقى الصغير عن أبيه، الدروس الأولى فى قضايا عديدة. ولما كان الأب مثقفاً وهاوياً للفن، فقد استطاع أن يغرس فى نفس صغيره منذ الطفولة .. حب الفكر والفن والأدب، والتعرف على عوالمها.

وكان شارل فى حوالى السادسة من العمر، حينما مات الأب. ويكون الحدث نقطة تحول فى حياة كل من الزوجة وابنها. فالفراغ الكبير الذى تركه ظل الثانى يذكره طوال حياته وفى شعره أيضاً. كما أن كارولين افتقدت بموته، أشياء حميمة لا تنساها للزوج المتفانى. أما أهم ماأيقظها موت الزوج عليه، فهو خطل موقفها من ابنها. إذ بدت كل الدعاوى الكبيرة والصغيرة، التى كانت تتذرع بها لتجنب طفلها .. واهية وغير حقيقية. مما لفتها أكثر إلى الموقف الحكيم الذى اتخذه فرانسوا فى هذه القضية. وأدركت كم كانت قاسية وغبية وجاهلة، وهى تبتعد بعواطفها واهتماماتها عن وحيدها .. بحجة أنها لم تكن تريد أن تنجبه!

وعولـت كـارولين على عـدم الإبطـاء فـى إصـلاح الخطـأ خاصة والطفل فى أشد حاجات العـون .. العـاطفى بـالذات. وفوجئ الصغير بإقبال الأم التـى كـانت متبـاعدة. وأكـثر مـن ذلك بإغداقها الحب والعطف والحنان عليه إغداقـاً. وأغلـب الظن أن شارل أحفل فى البداية، ولم يفهم سر تحول أمه، مـن النقيض إلى النقيـض. ولعلـه شـك فـى الأمـر الـذى لم يسبق حدوثه. مما اضطره إلى استقبال العاطفة الجديدة بنفور وعـدم اطمئنان. ولكن نبض الصدق فى لمسات أمه، أزالت كل ريبة فى نفسه، وفتح لها ذراعيه على سعتهما!

وبدأت صفحة جديدة فى حياتهما .. كارولين تسرف فـى حبها، تريد أن تعوض مافاتها وفاته من أمومتها. وهـو يقـابل هذه المشاعر المحمومة بأخرى لا تقل عنها عنفاً. كأنها مبـاراة فى أيهما أكثر عاطفة من الآخر! ومـع أن رد الفعل كالعـادة مساوٍ للفعل، إلا أنه بالنسبة إلى كارولين وشـارل، اتخـذ لونـاً جامحاً .. شكل علاقتهما بصورة غير عادية.

فالمبالغـة فـى العواطـف يسـتلب مــن الثانيـة مصداقيتهـا. ويحولها من لمسة طبيعية إلى أخرى غـير طبيعيـة وشـاذة. كمـا تحرم العلاقة مــن نبضهـا المتعـادل. وتتجـاوز بذلـك الحـدود، ويتضخم الإحساس كأنـه ورم. وبذلـك تـأثرت حيـاة الابـن تأثيراً ضاراً فى المستقبل. يقول عبد الرحمن صدقى فى "بودلير الشاعر الرحيم":

"فأمه اليوم تنظر إليه غير النظرة الأولى، وتناجيه بصوت أشجى مما كان، ولا تمل تقبيله وتدليله. وهو قد استعذب منها هذا التدليل والتقبيل، وتلقى متفتح الجوارح هذا الفيض المتوهج من هوى المرأة المكبوت؛ فاستغرق في هذا الجو العاطفي الذي انطبع أعمق انطباع في حسه المستوفز الباكر، حتى ليدهش المتتبع لكتاباته من أنه لا يذكر هذا العهد (عهد حنان الأم) إلا كما يذكر العاشق مواقف عشقه ومعاهد صبابته، متلهفاً على تلك الجنة الناضرة من صبوات الطفولة.

"ولقد تكرر منه الحديث في مستأنف حياته، عما كان يجده وهو طفل من لذة في ملامسة ثياب الحرير التي كانت ملبس أمه الدائم، وفي مصافحة الفرو الوثير الذي كانت تؤثره، وفي شميم مساحيق زينتها، وشذا عطورها. على أنه ليس من مقتضى ذلك أن تكون هذه الحال حجة على بوادر الانتكاس في طبيعته، ومثالاً من الأمثلة على ما لم يفتأ يلوكه فرويد وأتباعه أصحاب مذهب التحليل النفسي في نظريتهم المرموزة بمركب أوديب.

"فالأمر هنا لا يعدو أمر معظم الأطفال ذكوراً وإناثاً، فإن زينة أمهم الحبيبة توقع في نفوسهم أول اهتزاز للجمال، وأول إعجاب به. وهم فيما يجدون من ذلك متفاوتون بقدر إحساسهم وأطوارهم، وليس من شك في أن بودلير كان من الأطفال ذوي الإحساس الباكر الذي يعز مثاله، ولا تجري العادة بمثله".

(٣)

وانساقت الأم الشابة في تدليل وحيدها، بشكل زائد عن الحد، و لم يخطر ببالها لحظة أن في ذلك مايضيره .. ويضيرها أيضاً. إلى أن كان ذات يوم.

تعرفت كارولين على ضابط شاب من الجيران، وقبل أن تتطور العلاقة .. ويعجب كل منهما بالآخر إعجاباً تتصاعد حرارته ويصبح حباً .. ويخططان للزواج. أحفل الصبى ودقت نواقيس الخطر في نفسه، وعمل ألف حساب لظهور الرجل الغريب في أفق حياته وحياة أمه. وبرزت قرون الاستشعار تلتقط أدق الاهتزازات، وتفسرها أسوأ تفسير. ولذلك كان شارل أسرع الأطراف في اتخاذ موقف مبكر، من الطارئ العدو. حتى قبل أن يقوى الضابط صلته بكارولين، ويقدم على خطوة تلو أخرى.

ومع أن أوبيك الذى لا يعرف طبيعة شارل بودلير، عمل منذ البداية .. على أن يصادق الصبي ويتودد إليه. سواء تمكيناً لعلاقته بأمه، أو تودداً خالصاً لابنها. إلا أن الابن المتألم الحزين الذى كان كل يوم يمر عليه .. يحشد له المزيد من المرارة والضيق. وهو يجد في مرأى أمه والضابط، مايؤكد شكوكه فيما يربط بينهما من عاطفة .. حتى قبل أن يعلنا نية الزواج. كان بينه وبين نفسه صريحاً، في بغضه للضابط .. رافضاً إياه. ومع علمه أن موقفه لا يقدم أو يؤخر في

الموضوع. إن لم يعرضه لكراهية زوج الأم المستقبل، إذا علم به. إلا أنه استمر فيه، غير ملق بالاً لشيء آخر!

وجاء اهتمام الأم بالضابط، قبل الزواج أو بعده .. افتئاتاً على حق الابن. بمقياس كارولين نفسها قبل أي مقياس آخر. فهي التي علمته أن يكون عطاءها له، إلى مالا نهاية .. أكثر مما يجب. فتبذل من عواطفها ماهو فوق الشبع. فلما تغير ذلك وأصبح البذل أقل مما يجب، لم يستطع إزاء البون الشاسع بين الأمس واليوم .. وهو أصلاً يضيق بالضابط .. إلا أن يزداد بغضاً له.

وهكذا أفسدت الأم الشابة من حيث لا تدرى على وحيدها صباه. ومن سوء الحظ أن الابن شخص غير عادى .. فنان غير عادى أيضاً .. صاحب عبقرية خاصة. مما جعله يستوعب مايتلقى من أحداث، بشكل أكثر تغلغلاً وأكبر حجماً وأبعد تأثيراً. وبذلك أفرخ أسلوب الأم المسرفة فى عواطفها إيجاباً أو سلباً فى نفس الصغير أضراره. وبذرت فى روحه الشك فى جنس المرأة، وهى كما صور بعد ذلك، تدوس على الأمومة فى سبيل أحضان الرجل.

إنى لأتمثل أمك، ياوليد هذا العصر القليل الخير الخسيس
أتمثلها، وهى مكبة تحت عبء السنين على مرآتها
تحكم الطلاء الأبيض على الصدر الذى أرضعك

الأفكار الأولى التى يكونها الصغير عن العالم برجاله ونسائه يستقيها من مواقف والديه .. وتعاملهما معه.

وكذلك اتخذ شارل بودلير نظرته إلى المرأة من خلال سلوك أمه. وخطأ كارولين أنها ظنت أن تربية الأبناء، شيء عفوى يجئ حسب المزاج. ولا ينهض على مبادئ أو قواعد ينبغى الالتزام بها. ومن هنا تركت العنان لعواطفها، أن تتحكم فى تسيير علاقتها بابنها. مما سد عليها باب التعايش مع هموم الصغير، وأبعدها عن عالمه الداخلى. وكان لذلك أثره الخطير فى حياة بودلير.

لقد أحس الصبى أنه فقد منبع الحب الذى كانت تغتسل فيه روحه، وتستمد منه المدد والعون. وأن أمه خانته بشكل ما. ولاريب أن الابن كان محقاً من بعض الوجوه فيما ذهب من سوء ظن بالأم .. لا من حيث زواجها مرة أخرى بعد موت أبيه، فهذا حقها غير منازع .. بل من حيث إيحائها قبلاً للصغير، أنه كل شيء فى حياتها. ثم تراجع المد، لمجرد ظهور الضابط فى حياتها .. واستمرار التراجع بعد الزواج.

يقول محمد أمين حسونه فى "أزهار الشر":

"وقابل شارل هذه الزوجية بالنقمة واعتبرها خيانة لعواطفه، فحز الألم قلبه ومزق أحشاءه، وأصبح نفوراً مستوحداً، ونقم على ذلك المزاحم الخطر الذى اختلس مكانه من فراش أمه.

"والواقع أن هذا الزواج كان بمثابة كارثة فى حياة الطفل، الذى لم يستطع التوفيق بين عاطفته نحو أمه وبين البغض الذى

يشعر به نحو الدخيل الذى سلبه الكثير من حب تلك الأم وحدبها عليه".

ويدفعه غضبه لنفسه وعلى أمه وعلى الرجل الذى اقتحم حياتها إلى أن يسبب لهما من الضيق قدر مايستطيع. فإذا لم يقدر بعمره وضعف ساعده أن يقف ضدهما ويناضلهما وجهاً لوجه؛ فقد وجد أن فعل مايكرهان هو الأداة الوحيدة التى ينفث بها عن غضبه. ويجابه مايعده عدوانهما عليه؛ أنه لا يملك أن يرد عن نفسه من ناحيتهما مايكره، فلا أقل من المقاومة السلبية.

ولاشك أن الكثير من المواقف المغالى فيها، التى اتخذ بودلير منذ صباه وشبابه. يرجع إلى هذا الباعث الانتقامى وحده، الذى فتح له عوالم شريرة كثيرة لم يلتفت إلى أنها أضرت به .. قبل أن تفعل بغيره.

ولعل أظهر هذ المواقف فى فترة شبابه؛ عندما سمح له بإجازة قصيرة يقضيها فى باريس. بعد الخلاف العنيف الذى وقع بينه وبين زوج أمه حول مستقبله. فالضابط الذى أصبح ماريشالاً اختار له أحسن مايتاح للشباب؛ وهو العمل فى السلك الدبلوماسى. بينما بودلير الذى بدأ خطواته الأولى فى الفن، وأخذ يكتب أشعاراً .. اختار الأدب. وكاد الضابط الكبير أن يجن من ابن زوجته الطائش، الذى لا يقدر لقدمه قبل الخطو موضعها. وحاول إقناعه بلا جدوى، وتدخلت

كارولين. وعرضت أن يمنح الشاب فرصة للمزيد من التفكير يقضيها بعيداً فى العاصمة الفرنسية .. وقد كان.

وإذ وجد المراهق نفسه وحده فى باريس .. انساق فى تمرده إلى أبعد مدى. كأنه يبلغ من انتقامه الغاية وهو يشعر لأول مرة بالحرية الكاملة. ولكن لماذا هو انتقام موجه إلى أمه وزوج أمه، وليس انفلات عيار. كأى شاب مثله مقيد فى أسرته، يجد نفسه فى عاصمة الإغراء وحده بلا رقيب .. فينهل من اللذة الممنوعة؟ الجواب يحدده سلوك بودلير ذاته، واختياره مايسخر فى المقام الأول من معتقدات الأم وزوج الأم المتدينين.

فليس أبشع إلى تكوين كارولين وأوبيك، من الحرام والانحلال والانغماس فى الشهوات. ولهذا فإن بودلير لم يقع فى الغرام، أو يصادق الفتيات .. كما يفعل غيره. بل ترك كل ألوان النساء المناسبات، واختار صنفاً منهن .. هو أحط الأنواع بلا جدال. لأنه ينكر الحب ويسخر من العاطفة، ويفرغ العلاقة بين الجنسيين من محتواها الإنسانى. والسبب أنه يمتهن تجارة الجنس .. وهن الساقطات.

يقدم بودلير على ذلك، كأنه يعمم شهادته فى المرأة. ويجمعها كلها فى سلة واحدة صغيرة، ويقذف بها فى إدانة كاملة.

وسارة اليهودية أو الحولاء، من أشهر هؤلاء المتهتكات فى حياة الشاعر اللاتى اتصل بهن. ولا يكتفى الشاب الناقم،

بأن تكون المرأة الساقطة بطلة حياته فحسب. بل هو يرفعها درجات، ويتخذ منها بطلة لشعره أيضاً! كأنه يريد أن يذيع اتهامه أو تشويهه للنساء على الملأ.

ليست من الغانيات النابهات خليلتي
وإنما من نفسى أخذت فتنتها كما تؤخذ العارية
تقتحمها عيون المستخفين وهى غير مبالية
ولا يزهو لها جمال إلا فى مهجتى العانية
من أجل حذاء تلبسه فى قدميها باعت روحها
وإن الآله الرحيم ليستهزئ بى لو أنى استهزأت بها
واتخذت بجانب هذه المفضوحة سمت التورع
وتظاهرت بالترفع
فأنا مثلها أبيع فكرى راجياً أن أكون مؤلفا

يقول عبد الرحمن صدقى:

"ولاشك فى أنه من الدوافع التى دفعت بودلير إلى هذه الحياة نزوعه لإتيان الغريب والاجتراء على المستهجن، وانجذابه إلى المكامن المظلمة الغامضة بحافز الفضول والإغراق فى الاستطلاع والتحليل، إيمانه إيمان معاصره الروائى بلزاك بأن النفس الإنسانية كثيرة الشعاب معقدة الأسباب مختلطة العالى بالسافل، واتخاذه مثل موقف العلم الطبيعى الذى يعنى بدرس الجميل والقبيح، والخير والشر على السواء. ولعله وراء ذلك

كان يجد بعض الشفاء لنقمته على أمه فى مايجتمع له في هـذه التجارب من الشعور بحقارة المرأة".

وسواء عرف بودلير مخاطر دنياه الجديدة وهو يقبل عليها أو لم يعرف. فإن استهانته بمعاشرة المبتذلات وهو فى العشرين من عمره لا تلبث أن تصدم بإحدى نتائجها، وهى أصابته بمرض الزهرى. وكان في ذلك الوقت من منتصف القرن التاسع عشر، مرضاً خطيراً مفزعاً، ويستدعى علاجاً طويلاً. ومع شجاعة بودلير وقوة تحمله إلا أن ماكان يشاع عن الداء الخبيث من أخطار .. اضطربت له نفسه.

ويحاول أن يستقبل الأمر بسخريته المعهودة ولا مبالاته واستخفافه. ويكتب في ذلك شعراً، وإن حملت الكلمات مايضطرم فى أعماقه من خوف استشعر أحواء الموت. يقول بودلير بأسلوب الرثاء، الذى يكتب على شواهد القبور:

هـنا يرقـد رهـين العفـاء
من جنى عليه التولـع بأحـط النسـاء
فـنزل حـديث السـن غـض الصـبا
فى قاع مظلمة كحجر الخلد فى جوف الثرى

(٤)

تضخم إحساس بودلير بالنقمة على المرأة، وإذ ظن البعض من القراء أو النقاد أن تهجمه عليها .. لون من الإدهاش أو استرعاء الأنظار، فقد وهم. لأنه كان خاص رأيه الحقيقى فى

حواء. الذى يعلنه فى كل مجلس .. مما أثار عليه غضب مجتمعه. لقد تواضعت طبقته المتوسطة على مفاهيم وتقاليد معينة لا تخرج عنها إلا بمقدار. ولكن بودلير نسف ذلك كله نسفاً. وهو يحطم التمثال المعبود، الذى تحرق البخور تحت أقدامه .. وتقدم له القرابين من روح ونبض الإنسان الحى.

كان يلذ لبودلير أن يردد فى مجلسه قوله: "النساء فى رأيى كالحيوانات والدواجن لابد من حبسها وإيصاد الباب دونها. ومن الواجب القيام على تغذيتها والعناية بأمرها. ومن الواجب فى الحين بعد الحين ضربها وتأديبها."

ويكتب فى قصائده:

سأضربك بلا غضب ولا كراهية
كالقصاب
وسأجعل من جفنك
مروى لصحرائى
تسكب مياه العذاب
حتى تطفو رغبتى المنتفخة بالأمل
فوق دموعك المالحة
كسفينة تبحر بعرض البحر

ويقول بودلير فى قصيدة ثانية:

سأمنحك ياسمراء
قبلات كالقمر باردة
ولمسات ثعبانية سأحيطها بحواف مرقدك

إن البعض يذهب إلى أن افتتان بودلير بالقبح والدمامة .. كما يهيم غيره بالحسن والجمال. هو الذى قاده إلى أردأ أصناف المرأة؛ بينما واقع حياته يذهب إلى غير ذلك. فمن بغضه لموقف أمه منه تطلعت الأعماق أو فتشت النقمة عما يؤكد منطقها. وليس أدل على ذلك من تشوف روح الفنان .. فى غير الساعات التى يتملكه فيها الانتقام من المرأة إلى النور والضياء والجمال. فيأسى حتى فى لحظات هبوطه وانسياقه مع مباذله على نفسه ..

كنت فى بعض الليالى مع يهودية نكراء
وكأنما كنت جثة ممدة إلى جانب جثة،
فأنشأت قرب هذا الجسد المبـــــذول
أفكر فى الجمال الحزين الـــذى حرمته

وهذا يتفق تماماً مع جانب آخر اشتهر به بودلير .. ونم عن تعاطف عميق مع آلام الغير. وهو دفاعه عن الشقاء الإنسانى فى صوره المختلفة. "أفكر فى الزنجية المسلولة. أفكر فى كل من فقد مالا يستعاد. أفكر فى اليتامى الضعاف الذابلين كالزهور. فى البحارة المنسيين فى جزيرة. فى الأسرى فى المنهزمين والآخرين".

إن بودلير الذى عرف الألم جيداً، وعانى منه إلى درجة غيرت طريق حياته. هو أقرب إلى المعذبين فى الأرض، صرعى الظلم والفقر. والألم عند الفنان الفرنسى الكبير، ليس شراً خالصاً. بل هو ضرورة حيوية للإنسان، تصهر خبثه

وتطهره من شره. يقول بودلير فى ديوانه الأشهر "أزهار الشر":

هتف الشاعر قائلاً: سبحانك ربى
يامن منحت الألم دواء إلهيا شافيا لرجسنا .
إنه العنصر النقى الأمثل
الذى يهيئ النفوس القوية للمسرات الطاهرة
لست أجهل أن الألم هو الشرف الوحيد
الذى لن تأكله النار والتراب

تفتحت الآفاق أمام بودلير، وهو يتفرغ للفن والشعر. بعد أن وصل إلى سن الرشد وخرج عن وصاية زوج أمه. وحصل على نصيبه من ميراث أبيه وهو مبلغ طائل. وقد أعدته موهبته الأصيلة ورؤيته التحديدية واستقلاله الفكرى ليتبوأ مكاناً عظيماً فى الأدب الفرنسىالحديث. وعلى الجانب الخاص من حياته، كان يعيش حياة مترعة بالسعادة. كما يعدها من وجهة نظره المكونة من المرأة والشراب والمخدر .. فى إطار من الغنى والترف.

وانسياق بودلير فى المخدر: الأفيون والحشيش، كان لباعثين: خاص وعام. الأول فى محاولة للتخفيف عن نفسه وليس لنسيان، ماينغمس فيه من رذائل ومايلاقى فيها من صراع. والثانى مسايرة للمجتمع الارستقراطى المترف، الذى يقبل شبابه على المخدرات فى ذلك الوقت .. كنوع من الأبهة التى تليق بالمتغندرين والأثرياء وأهل الفكر وأصحاب

الأقلام. بكل مزاعم تهييج الحس وتنشيط الخيال واستدعاء الوحي الفني، وكذلك اكتشاف عوالم جديدة. لاعتصار المزيد من اللذات والمتع الحسية وغير الحسية .. الحقيقية والمزيفة؛ التي تجعل لحياتهم من وجهة نظرهم معنى.

ويصل الإقناع بشارل بودلير بالنسبة إلى المخدر .. إلى أن يكتب عنه وفيه، نثراً وشعراً. محبباً محبذاً مشجعاً تناوله.

وبعد قليل ومع زوال آثار رد الفعل الأول، من الانتشاء والبهجة .. والاحتياج إلى زيادة الجرعات وافتعال السعادة. يصبح المخدر بآثاره المدمرة، هماً جديداً من هموم الشاعر المتعددة .. نفساً وجسداً وروحاً، يرزح تحتها ويعاني منها. ويكون اضطراب النوم من أهونها شأناً. "أخشى النوم كما يخشى كل مخلوق هوة فاغرة فاها. هو يشيع فيها الذعر المبهم الذي يقودني إلى حيث لا تدري. من جميع النوافذ لا أبصر سوى اللانهاية، وعقلي الذي يحتله الدوار دائماً يغار من الجمود الشائع في العدم".

ويبلغ من أمر بودلير مع المخدر أن يصدر عن عالمه كتابه "الفراديس المصطنعة" الذي يقول عنه محمد أمين حسونة:

"ينحو فيه بودلير منحى جديداً يقصد به إلى فكرة فناء الإنسان في محيط الملذات الوهمية التي يمكن أن تلهب الخيال وتضاعف قوة التصور، فهو يفزع في هذا الكتاب إلى المنبهات والمغيبات كي يفقد شعوره بسلطان حواسه ويطلق خياله من عنانه ويسبح في دنيا غير هذه الدنيا، هي نزعة الفرار من عالم

الواقع إلى عالم تخيلى أجمل منه وذلك بواسطة المغيبات. وكانت هذ الفكرة التى استحوذت فى هذا الكتاب على ذهن بودلير قد استحوذت من قبل على ذهن الكاتب الإنجليزى توماس دى كوينسى.

"وأهم الموضوعات التى طرقها فى هذا الكتاب: التوق إلى اللانهاية. ماهو الحشيش؟ الإنسان الإله. ملذات الأفيون. عذابات الأفيون".

(٥)

ومع أن بودلير قد أصبح مشهوراً تستقبله كافة المجتمعات الباريسية بترحاب. ويلتقى فيها بأجمل الفتيات إلا أنه لم يتوقف عند واحدة منهن فهل لعبت الصدف دورها فى عدم عثوره على الفتاة الملائمة التى يجد عندها الحب والحنان والاستقرار؟ أم أنه لم يعن أصلاً بذلك؟ أم أن اتصاله الطويل ببنات الليل أفسد ذوقه فى حواء .. إلى درجة لم يعد يستسيغ غيرها. فتسمم دمه مما لم يمكنه من أن يسلو هذا الصنف الردىء من النساء؟

سواء كان هذا أم ذلك، فقد لعبت الصدفة وحدها دورها الأثيم .. ليصبح انحياز بودلير إلى عالم الساقطات نهائياً. عندما التقى بجان ديفال. ممثلة مسرحية مبتدئة رديئة تجيد من أمور الحب أكثر مما تعرف عن المسرح. من الصنف الشهوانى الذى يثير بودلير، ويذكره بنساء الجزر الشرقية اللاتى رآهن فى رحلته إليها وأعجب بهن كثيراً. وكانت الفتاة جميلة

بمقياس بودلير فى المرأة .. سمراء زنجية طويلة ذات بشرة نحاسية ووجه صبوح وعين سوداء كحيلة. ليست متوسطة الذكاء بل قليلته. ومع ذلك أقبل عليها الشاعر المغضوب عليه، كما لم يقبل على أنثى من قبل. وصورها في العديد من قصائده بشكل شديد الجاذبية.

فى غلائلها الهفهافة المتلألئة
كتلكم الأفاعى الطويلة المائسة
يرقصها على أطراف العصى حواة المعابد المقدسة
حين أكون إلى قربك فى ليلة دافئة من ليالى الخريف
استنشق مغمض العينين شذا صدرك الحار
تتراءى لى شواطئ سعيدة
تسطع عليها شمس متوهجة صالبة لا تتغير
ويحملنى شذاك إلى آفاق ساحرة
فكأنى بمرفأ يحفل بالقلوع والصوارى
وهى لما تزل منهوكة فى عراك اللجج
وهذا أريج شجر التمر الهندى
متضوعاً فى الفضاء يفغم حسى
ويمتزج بأغانى الملاحين فى نفسى

ويقول عنها على محمود طه: "لقد تقرب منها بودلير تقرب العابد، وكان يراها فتنة ونعمة ساعة أن يوسد رأسه المثقل

بخيالات الأفيون بين نهديها الطوديين، موارياً وجهه في حلكتهما عن آفاق النور.

"ومن هذا الجسد الحالك، ومن أزهار الشر المتوقدة استمد بودلير هذه الأفكار القاتمة المضطربة، وصاغ هذه الأشعار المثالية التى وصفها جوتييه بأنها تلمع كالرخام الأسود."

ومن الطريف أن بودلير كان يعامل صاحبته المبتذلة بأتيكيت السادة المهذبين. لا بالأسلوب السوقى الذى تعرفه فى وسطها. وبدلاً من أن تسعد جان بالعاشق الفنان الذى انتشلها من بيئتها الوضيعة. ورفعها إلى مستواه وهو يغدق عليها من ماله وترفه .. سخرت من تهذيبه ومن محاولته الارتقاء بها!

لقد بدا واضحاً منذ البداية فساد العلاقة بين بودلير وجان. هذ العلاقة التى أرادها الشاعر قوية دائمة، وليست مؤقتة هامشية. تطلب بودلير فى صلته بها جسدها وحده. وكأن مخاطبة هذا الجسد يلغى من الفتاة بقية أعضاءها، ويسلب منها عقلها وغيرتها، وكل مايفرز الجهل من مواقف وعواصف. وكان أكثر مايغيظ الفتاة من صاحبها، انكبابه بعض ساعات اليوم على أوراقه وكتبه.

وتقرر أن تستخدم الجسد الذى يحبه، فى الاستئثار به تماماً. وإجهاض أى اهتمام آخر له، حتى لو كان القلم والشعر والكتاب. ومع أن الشاعر الكبير اكترى لها مسكناً خاصاً ليستطيع أن يتفرغ لفنه بعيداً عنها .. فى الفندق الفاخر الذى

يعيش فيه. إلا أن ذلك لم يفده كثيراً إذ كانت كثيرة الإغارة عليه .. لتطمئن أنه لا يزال فى قبضتها.

يصور محمد أمين حسونة هذا الجانب من تكوين الفتاة بقوله: "لم تفهم جان بودلير ولا إحساسه الدقيق أو خياله الجامح .. كانت تصفه بأنه يتاجر فى الغيوم، وكانت تغار منه عندما يقع نظرها عليه وهو منكب على الكتابة أو القراءة، فتنشب المشاجرات، ويقوم بينهما عراك فيتضاربان. وأخيراً تعمد إلى بعثرة أوراقه إذ كانت تجهل قيمة ماتحمله من شعر رصين أحدث فيما بعد ثورة فى الأدب".

ولم تحمد جان لبودلير رقته وطيبته معها، بل عمدت إلى استغلاله كأن لم تهتز أو يؤثر فيها عواطفه الصادقة أو حرارة قلبه .. التى أحاطها بها. فلم تحمل له حباً أو تكن له وداً .. على طول الزمن. يقول الشاعر الكبير عبد الرحمن صدقى، عن جان ديفال:

"وكان الشاعر من هيامه بها يتوسم فيها إلى جنب رذائلها الفاضحة الجمة بعض الخصال الطيبة. فإذا به يفجع فى هذه البقية. فقد تكلف أن يعلمها، فإذا هى مغلقة الذهن مؤثرة للجهل لا ينفع معها تثقيف. وهى تقرأ خطاباته وتفتش ثيابه وتفتح أدراجه لعلها تجد فيها ماتستخدمه يوماً ضده. وهى لا ترعى له عهداً ولا تحفظ له جميلاً، ولا تدعه لحظة يفرغ إلى عمله، وتفعل كل مافيه مضايقته، حتى كان ينام نهاراً ليقوم بالليل وهى نائمة يعالج بعض الكتابة المطلوبة منه. ولا يقع

نظرها فى نظره حتى يقع بينهما شر المشاحنات. ولقد بلغ من إثارتها له أن أهوى عليها مرة بشمعدان، وصدم رأسها بالمنضدة صدمة أشجته. وهو يحمد الله -كما قال في خطابه لأمه- على خلو بيته من سلاح نارى وإلا فإنه لا يدرى ماكان فاعله فى مثل هذه الثورات التى تسوقه هذه المرأة إليها فلا يكاد يملك نفسه".

عرف بودلير بالإسراف فى عواطفه، وفى ماله على السواء. وبالنسبة للأخير كان ينفق ببذخ ويعيش كما يليق بثرى متلاف. والثروة الطائلة أخذت تتناقص، وصاحبها يهيئ لمزاجه الترف والمرأة والمخدر. وهال الأمر زوج أمه الذى كانت تصله أنباء بودلير بشكل قوى. وأدرك أن الشاب مفلوت العيار سينضب ماله عما قليل .. إذ لم يوقف عند حده. وبالطبع لم يفكر الجنرال أوبيك فى أن ينصح الشاب. فالنصيحة لم تجد مع بودلير أبداً. ولقد مضى زمن المعجزات، التى كانت فى قدرتها أن تفعل.

ولذلك لجأ إلى القانون .. وطلب من المحكمة الحجر على الشاعر، لإنقاذ ماتبقى من ماله. الذى ضاع أغلبه فى الفساد والموبقات. واستطاع الرجل أن يثبت للمحكمة صدق دعواه. فحكمت بتعيين مسجل عقود وصياً على الثروة المتبقية. على أن يخصص لبودلير راتبا شهرياً، قدره مائتا فرنك.

ونفرت الدماء فـى عـروق الشـاعر، وإزدادت نقمتـه علـى زوج أمه. وبدلاً من أن يتفهـم البـاعث الـذى جعـل الجنرال على موقفه. وينظر إلى واقعـه أو حياتـه، نظـرة موضوعيـة أو جديدة. تمكنه من أن يتخلص من مباذله وضعتـه، ويستجمع قواه .. ليعيش حياة سوية تليق به. ظـل علـى غيـه وإسـرافه. وبالطبع لم يكف الراتب الشهرى، لمثل إنفاقه. فتطلع إلى منبـع آخر يحصل منه على النقود، وهو الاستدانة من المرابين. ومنـذ ذلـك الوقـت لم يكـف عـن ذلـك. وإذا ضـاق أمامـه بـاب الاستدانة فى بعض الأحيان يلجأ إلى أمـه تمنحـه القليـل الـذى تدخر.

وكانت جان أحد الدوافع الملحة إلى الاقتراض. فهى لاتنى فى الوقت الذى لا تصدق معه الود تطالبه بالمزيد من المال.

أفضى إدراك بودلير أن الفتاة لا تربطها به إلا النفع الخـاص أو المال .. الذى يعطيه لها وينفقه عليها. إلى اشتعال الصـراع الناشب فى أعماقه، بـين بغضـه لهـا ولهفتـه عليهـا. ولم يكـن غافلاً عن المستنقع، الذى أغـرق نفسـه فيـه. ومـاجلب عليـه عشق الساقطة الجاحدة من آلام. ومـع أنـه حـاول أكـثر مـن مرة، أن يسقط عنه هذا الحب المهلك، ويتخلص من صاحبتـه. إلا أنه لم يقدر. ففى كل محاولة كان يـتراجع أو يتقهقـر قبـل أن يبدأ.

وتعـرف جـان منـذ البدايـة نقـاط ضعـف عاشـقها المثقـف الفنان، الذى يتهافت على مفاتنها الوحشية. فتأخذ فى إثارته

أكثر وأكثر، خاصة إذا بدا أنه فى صراع مع نفسه ضدها. ولا تكاد تمضى فى حيوانيتها .. حتى يكتب لها الفوز. وتبتسم ابتسامة الانتصار، بينما هو ضعيف متهالك.

ويترك الصراع آثاره على الشاعر وفنه، ويصبح شعره أكثر توتراً. لأن صاحبه إزداد ضيقاً وقلقاً وانشغالاً. ويكتشف بودلير كما يقول محمد أمين حسونه أن "عشتروت السوداء" تخونه مع أصدقائه، وأنها لا تتورع عن بيع جسدها لكل راغب لقاء المال. فكان يهجرها ثم يعود إليها صاغراً، مدفوعاً بشهوته الجامحة ليروى ظمأه منها ويستمد الوحى من جسدها العنبرى فى سلسلة قصائد كالأفعى الراقصة، والشرفة والجواهر، والشعر وفينوس، والشيطان".

وتصبح المعشوقة همه الأول، لا من ناحية اللذة المنهكة فحسب بل من ناحية الخلاص المستحيل منها. إلى الحد الذى ينشغل فيه بودلير بالتفكير فى الخلاص منها عن طريق الجريمة .. بقتلها. وتمتلكه هذه الفكرة زمناً طويلاً، تلح عليه فى أن ينقذ نفسه .. من الشيطانة التى أذلته، واستبدت بحياته، فلا يستطيع تحولاً.

ويلجأ إلى الشعر واحته الباقية التى يجد فيها ملاذه الأخير. بعد أن خذلته المرأة مرة أخرى فى مجال الغرام هذه المرة. فملكته الشعرية لا تزال قوية نابضة بالحياة؛ بل لعلها أقوى مما كانت وأنضج. وكأنها تعوضه عن سائر ضعفه النفسى والجسدى والإرادى. ولكن اللجوء إلى الشعر لم يعد منقذا ..

بل يخالطه كدر شديد. لأنــه أصبـح الخـلاص والحصـار معـاً. فصراحـة بودلـير فـى القـول، لا تمكنـه مـن إخفـاء سـقوطه. فيفشى القصيد أدق مافى حياتـه الخاصـة. فكـأن اللعنـة التـى حطت عليه لم تـدع منفـذاً للـبرء. حتـى الشـعر يتحـول بـين أصابعه إلى أداة إدانة!

أيتـــها الداخلة فى قلبى الشاكى كطعـنة سكين
المقبلة فى قـــوة كعصبة مــــن الشياطـــين،
المفتونة المتبرجة
اتخذت سريرها وملكها فى عقلى الراغم المسكين
أيتها الساقطة التى أنـــــــا موثـــق بـــها
كالسجين بأغلاله، ورهـين المقامرة بالمقامـــرة
والسكير بزجاجة الشـــراب، والديـدان بالجيفة
لعينة، لعينة أنـت
ناشدت الخنجر القاطـــع أن يمكننى مـــن حريتى
وهتفـــــت بالســم الزعــاف أن يغيث نذالتى
فأذرى بى الســــم والخنجر وناجيـــانى:
لست أهلاً لإعتقاقك مــــن أسرك المنكــــر

(٦)

الجناح الواحد مهما تبلغ قوته لا يمّكن من الطيران. والحياة لا تنهـض علـى الـروح دون الجسـد، أو العكـس .. بـل علـى الإثنين معاً. والظن أن المرء يستطيع أن يقتصـر، علـى جـانب

منها دون الآخر. وهم، لأنه يمتص منه ملامح الإنسان .. ويحوله إلى ملاك أو شيطان. واعتماد بودلير على الجسد، مهما اتفق مع اتجاه مزاجه، ومهما طالت ممارسته، فهو ضد طبائع الأشياء. وهذا مااستشعر الشاعر بعد طويل وقت.

فالتمرغ الحيوانى فى الجسد يقودها إليه الرغبة المحمومة. إذا استطاع أن يقهر فى صاحبه، صوت الحب النظيف .. سنوات بعد سنوات. فليس معنى ذلك أنه أراد أو لم يرد، قد وأده إلى الأبد. وهذا ماحدث بالنسبة إلى بودلير الذى لم يلبث تطلعه إلى الناحية الروحانية فى الهوى أن تغلب. وطمع الشاعر فى التطهر .. قلباً ونفساً. وأن يتذوق الهواء النقى، الذى يبعث الحيوية فى الروح.

وعندما تملكته هذه النظرة أدهشه أن يرى الحياة حوله مختلفة عما كانت. وفوجئ والغشاوة قد زالت عن عينه أن حان أصبحت مترهلة بشكل مقزز. وأن السحر الذى كان يجملها، ويرغبه فيها، قد زال منذ وقت طويل، لم يقف على بدايته. وعجب أن يكون قدمضىعليه مع هذه المرأة الهلوك .. أربعة عشر عاماً كاملة. عمر آخر. فأرعبه أن يكون قد عاشر كل هذا الزمن، هذه الأنثى الأقرب إلى البقرة .. التى قال فيها أشعاره.

واستمتع بودلير بحياته الجديدة .. ووقف على الجانب الآخر من المجتمع الذى لم يكن يعرفه أو يعرف أصحابه. الناس البسطاء الذين يعيشون حياتهم العادية والأسرية. بلا إدمان

ولا مخدرات، ولا تقاليع فى الملبس أو الأثاث أو السلوك أو العادات. والذين يحبون بلا انحلال، ويعشقون بلا فجور. ومع أنه التقى بأكثر من واحدة من هذا اللون. إلا أن القدر لم يتح له، أن يعيش معها قصة حب طويلة. إلى أن عرف أبولونى سباتيه.

نموذجاً للجمال والرقة والحنان، ولاعجب أن يتخذها الرسامون والمثالون والأدباء .. وحياً لإلهامهم وأعمالهم. ولذلك ظهرت صورتها وملامحها فى الكثير من الأعمال الفنية لذلك العهد. كانت أبولونى إحدى الغانيات المشهورات غير المبتذلات -ومن الغوانى المتهتكة والمحتشمة- وصديقة خاصة لمالى شاب. ولثقافتها وحبها للآداب والفنون، أقامت فى بيتها صالوناً أدبياً فى أمسيات الآحاد. يؤمه العديد من مشاهير أصحاب الأقلام والشعراء والفنانين. أمثال تيوفيل جوتيه وفلوبير وباربى دورفلي وكسيم دى كامب والفريد دى موسيه، وكان بودلير واحداً منهم.

لقد وجد فيها شاعرنا الكبير ماكان يصبو إليه. من المرأة الذكية والأنثى المتفهمة والحس المرهف والقلب العطوف. وهى أشياء كانت طوال حياته لا يتطلبها فى المعشوقة .. أيام تسلط شهوة الجسد على تفكيره. ولكنه اليوم غيره بالأمس .. فهو فى حاجة إلى اليد الحانية والفؤاد الرءوم والعقل المتفتح .. تحنو على عذابات السنين.

لقد دخلت نغمة بل نغمات جديدة في حياته تعزف عليها نفسه وروحه أبدع الألحان. ويتغير تبعاً لذلك قاموسه اللفظي المستخدم، سواء في نشاطه اليومي أو في أشعاره. فعوالم الصفاء والنقاء والنور، التي تحيط به وتتخلله، تعمل على تطهيره مما يثقله من شوائب الجسد.

ويكثر تطلعه إلى السماء، لا السماء الطبيعية القديمة .. التي تكمل شهوات البدن. بل سماء الخالق والرحمة والضياء والقيم. وهو في انسياقه في تيار الخلاص، لا ينسى لحظة واحدة صراعه مع الشر .. الذي كان ومارس. ويقارن في كلماته التي يكتبها والحب موضوعه، بين أمسه الأسود ويومه الأبيض!

حين يدخل الفجر الأبيض الزاهر في قلب الفاجر
ومعه المثل الأعلى المنشـــود بوخـــزه الأليم
يفعـــل سره الخفـــي فعلـــه القاهـــر
فـــإذا في البهيم الهامـــد يستيقظ ملك كريم
وإذا السمـــاوات العـــلا الروحانيـــة
ينفتح فلكها المكـور البعـــيد المنـــال
غائـــراً سحيقـــاً، لـــه مالها مـــن جاذبية
للصريع الذي لا يزال متألمـــاً حالماً بالكمـــال
كذلك - ياربتـي الحبيبة، ياذات الطهر والصفاء
على البقايا الداخنة مـــن ليالي العربدة الخرقـــاء

تهفـــــو أمام عينى الشاخصـــة فى الفضـــاء
ذكـــراك وضـــاءة زاهرة ساحـــرة بغير انتهاء

ومع الحب الكبير الذى يحمله بودلير لأبولونى أو مدام سباتيه، فهو يجفل من أن يصرح لها به. ويخفيه عن أقرب أصدقائه! ومن الغرابة أن يفعل بودلير ذلك، ويتملكه الخجل وتعوزه الشجاعة وهو المعروف بالجسارة مع بنات الهوى! فهل غشيه الاضطراب، لأنه يتعامل مع صنف آخر من النساء. لم يعرفه من قبل، ويخشى من مغبة الإقدام .. ويفزع أن يقدم على خطوة خاطئة؟ أم لأنه يخاف الفشل فى محاولته، وسخرية المعشوقة؟

ويظل الشاعر يخفى غرامه، وحتى قصائده التى يكتبها فيها .. لا يجسر أن يقولها لها ..! أو يقدمها إليها! بل يتوسل إلى ذلك بالدهاء والخفاء، لتصل إليها وحدها. ولا يعلم أحد من القريبين منها .. بالعاشق المجهول! وتحاول المرأة وهى تدرك مدى ماتحمل الأبيات، من صدق العاطفة وحرارتها .. أن تعرف صاحبها من خطه. فلا تبلغ من ذلك شيئاً، لأنه يختلف عن كل ماتعرف من خطوط أصدقائها والمترددين عليها! لأن بودلير زيف خطه وهو يكتب إليها!

ولكن مدام سباتيه لاتلبث بعد قليل، أن تتكهن بالشاعر الكبير المجهول. وتتأكد تماماً عند صدور ديوان بودلير "أزهار الشر". إذ تعثر على القصائد التى وصلت إليها، ضمن أعمال

الديوان. وأسعدت المفاجأة المرأة، وهي تجد نفسها محبوبة الشاعر العظيم.

ويسقط العائق الأخير، ومشاعر سباتيه تنحرف نحو بودلير .. متجاوزة طور الصداقة إلى الحب. ولا يصبح الهوى من جانب واحد، بل من ناحيتيه. ويهنأ الشاعر بنبض قلبه، الذى لم يعد مخروماً. وكان أمراً مدهشاً أن يتغير الإنسان الشهوانى، إلى هذه الدرجة من الروحانية .. التى تعيد للغرام اعتباره فى النقاء. وبدا الشاعر أقرب إلى المحبين العذريين، وكأنه مخلوق جديد لم يدنس يوماً بمعصية!

ولكن نقاء الشاعر الذى كان رحيماً، منذ أن أطلق عليه جان مورياس هذا الوصف. وكان بودلير نفسه يؤمن بأحقيته للقب،وهو يردد كما كتب يوما لأمه: "أعتقد أن حياتى هالكة، وأنها ستكون كذلك من بدايتها إلى نهايتها"! هذا النقاء كان أقوى بكثير مما يظهر على السطح، ولم يعرف به بودلير نفسه .. إلى أن كان ذات يوم.

فبينما حرارة العاطفة بين العاشقين، تزداد عنفاً على مر الأيام. وهما يتطلعان إلى إرواء الظمأ والاندماج الكامل. وتحين اللحظة وتتهيأ المرأة وتتجرد من ثيابها .. "إنى أسعد النساء. ومارأيتك قط أبدع وأروع فى عينى منك الآن. ياصديقى الأجل. فافعل بى ماأنت فاعل. إنى لك بقلبى وعقلى وجوارحى". ويهم بها .. ولكنهما يفاجآن معاً .. بعجزه عن ممارسة الحب معها!

وصدق بودلير، فهو كما قال عن نفسه: "أنا الجرح والسكين .. أنا الطاعن والطعين".

ومن الغريب أنها المرة الأولى والأخيرة، التي يقع فيها لبودلير هذا الحدث. فقبلها وبعدها كان طبيعياً مع غير أبولونى من النساء!

ويفسر البعض ماوقع لبودلير، بأنه وصل إلى مرحلة يرهب فيها الشهوة. ويبرر البعض ذلك، بأن الشاعر كان يعتقد كما كتب يوماً: أن المرأة التي نحبها هى التى لا نمتع بها. ويعزو فريق ثالث ذلك، إلى إصابته بعقدة نفسية، لا تجعله طبيعياً إلا مع المتهتكات!

على أية حال، تفهمت مدام سباتيه جيداً الموقف. وافترقا وهما أصدقاء أعزاء. وظلت تبادله الود إلى أن مات بعد قليل، بعد إصابته بالمرض. وكانت أوفى الناس له فى مرضه بعد أمه، وهي تعوده كل يوم. وهو من ناحيته استمر فى حبها، آملاً بعد أن فشل لقاءهما بالجسد .. أن يلتقيا بالروح.

إلى أحب النساء، إلى أجمل النساء
إلى من ملأت قلبى بالضياء
إلى الملاك، إلى المعبود الخالد
تحيتى فى الخلد
إلى التى أشاعت فى حياتى
روحاً كالهواء المنعش

إلى التى فى كيانى المجهول على الفنـاء
أفرغــــــت طعـــــم البقـــــاء
هيهات أيهـــا الحب النزيه الصريـــح
أوفيك حقك مـن الوصف الصحيـــح
ياحبـــة المسك الخافيـــة الثاويـــة
فى قـــرارة نفســـى الباقيـــة

يقول محمد أمين حسونة عن أقوى شعراء فرنسا وأعظمهم:

"إن بودلير كان متعلقاً بالحياة، فلم يعرف قلبه الشيخوخة. كان متجدد العاطفة والشعور، يجد البلـوى والعـذاب فحملنـا على التـألم. ووصـف لنـا الرعشـة حتـى جعلهـا تتمشـى فـى عروقنا، دفعه الإسراف فى اللذة إلى قتل الشهوة فـى أعماقـه. وكـان ضميره يستفيق بعـد أن يقـرب الدنـس فيتمـرد علـى الشهوة، محاولاً التحرر من هذه النزعـة الأثيمـة والتنفيـس عـن صدره بالشعر.

"كان بودلير ضحية المرأة، فراح يلتمس العطف الـذى فقـد منذ طفولته .. فكانت النتيجة أنه ظفر بالكنوز الجسـدية دون العاطفية".

يقـول علـى محمـود طـه: "لقـد كـان بودلـير فنانـاً صادقـاً، طموحاً، محباً للجمال. وعلى العكس مما يرى الكثـيرون فإنـه باندفاعه المحزن فى تلويـث الجمـال الأرضـى، ورده كـل أنثـى امرأة عاهرة، قد أفشى عاطفته المكرسة لعبادة الجمال المطلق.

"ولكنه غامر وكابد كثيراً فى نشدان حرية الفكر، من حيث هى حرية الفن، وليس لنا إلا أن نتمثل قوله: "وسأظل دائماً وربما إلى الأبد -كذئب وقع فى كمين- أثب إلى قمة المثل الأعلى ..".

ومع اشتداد الداء ببودلير، يأخذ فى رثاء نفسه! ولا تفوته سخريته حتى فى هذا الموقف!

فى أرض شحمة مليئة بالقواقع
أريد أن أحفر بنفسى لحداً عميقاً
حيث يمكننى عندما أشاء
أن أضع عظامى الهرمة
وأنام فى النسيان كالقرش وسط الموج
أكره الوصايا .. أكره القبور
بدلا من استجداء دمعة من هذا العالم
وأنا الحى .. أفضل أن أدعو الغربان
لتدمى كل أطراف هيكلى النجس

بيرون
شاعر العواطف الهائمة
بين الإرتفـــاع والهبوط

(١)

يظل اسم لورد بيرون الرومانسى العظيم .. الجرىء المنطلق الحزين، يتردد ويتجـدد فـى أذهـان العـالم علـى مـر الأجيـال. سواء قرأ الناس شعره أو لم يقرؤا! وأدانوا مباذله أم لم يفعلـوا! والسبب أن الفنـان الكبير الرقيـق، أتخذ موقعه فـى وجـدان الدنيا، بموقفه العظيم مـن قضيـة الحريـة ودفاعـه عنهـا. ليس بقلمه فحسب، بل بماله ونفسه .. إلى حد التضحية بروحه فى سبيلها. ويعظم هذا الموقف إذا كـانت التضحيـة ليست مـن أجل وطنه، بل من أجل بلد آخر!

كما يتميز بيرون بجرأته فى مواجهة تقاليد مجتمعه، وكـذب الناس ونفاقهم. فلم يخف موقفـه أو يكتـم رأيـه، كمـا يفعـل الكثيرون إزاء رفض هذه التقاليد. بـل يعلـن ويجهـر بشـجاعة تحسب له، سواء أصاب أم أخطأ!

ولاشك أيضاً أن حياة بـيرون العاطفيـة، لعبـت دوراً بـارزاً فى ترسيخ شهرة الشاعر الإنجليزى! ولعـل هـذه الناحيـة عنـد

كثير من أصحاب الخيال المجنح والقلوب المرهفة والمشاعر الرقيقة، هي التي شكلت أكثر من غيرها .. ملامح لورد بيرون عند الملايين! وهو جانب يظل دائماً حياً متجدداً .. مادام الحب يرفع أعلامه! ويكفي بيرون عند هؤلاء، أنه صاحب القول المأثور: "أواه! .. ليت النساء جميعاً ثغراً واحداً .. إذن لقبلته واسترحت .."!!

لقد أثر بيرون في الملايين في جيله وغير جيله، في بلده والأرض كلها. وكان إحدى قمم الرومانسية، التي شدت إليها قلوب وعقول العالم .. يؤمنون بفكره ويترسمون خطاه.

وتكوين بيرون العاطفي، لا يمكن أن ينفصل عما ورثه عن آبائه وأجداده .. في روحه ودمه. من عنف إحساس وعشق للمرأة وتهالك على الملذات.

يصف الناقد أنور المعداوي بيرون بقوله:

"خرج إلى الدنيا وفي دمه مزيج من شرور الوراثة ومواهب الفنان، ولقد خففت هذه من حدة تلك. فلم يلق الحياة بالشر المطلق الذي يلغي الإحساس بالألم العارض والهم العابر ووخزات الضمير. لا يعنيه من دنياه غير اللحظة التي يعيش فيها وتعود عليه بكل مايشتهيه الرجل الجميل المدلل الذي لايمد عينيه أبداً إلى الأمام! وفي محيط الشر والإثم كان "الفنان" الذي في دمه يستيقظ من حين إلى حين، ومن هنا كان بيرون يتألم ولكنه الألم العابر كما قلت، يطرق بابه ليرتد

عنه بعد لحظات أمام جموح الشباب المترف الذى يحطم فى سبيل غايته كل ماتعارف عليه المجتمع من حدود وقيود"!

فى وسط العراقة والثراء والجاه، التى عاشتها عائلة بيرون .. كان لأفرادها باعاً طويلاً فى المغامرات بشتى أشكالها! كان الجد المباشر للشاعر من ناحية أبيه، ضابطاً بحرياً شجاعاً وصل إلى رتبة الأدميرال فى البحرية البريطانية. ومع ذلك فقد لعب سوء الحظ دوره الغريب فى حياة هذا الرجل، الذى أطلق عليه معاصروه اسم "جاك العاصفة" أو "جاك المنحوس"! والسبب أن مامن باخرة قادها، إلا وتعرضت لكارثة .. تنتهى بغرقها فى اليم! الأمر الذى أفزع البحرية الإنجليزية، واضطرها إلى منعه من القيادة!

واشتهر ابنه الأكبر جون أيضاً وهو والد الشاعر .. الذى كان غريب الأطوار، مما دعا الناس إلى أن يطلقوا عليه "جون المجنون"! بثلاثة أشياء؛ المخاطرات العسكرية خاصة فى الحرب الأمريكية. وغرامياته النسائية، والتى كان أشهرها علاقته بزوجة لورد آخر من رجال البلاط .. حسناء غنية وذات أولاد. انتهت بهما إلى الهرب إلى فرنسا، ثم العودة بعد أن طلقها زوجها! واقترن بها بيرون (الأب)، وأنجبت منه فتاة هى أوجستا. التى سيكون لها شأن فى أخيها الشاعر، أى شأن! أما الشئ الثالث الذى عرف به، فهو كثرة الديون التى يقترضها!

ولا يتاح للزوجة أن تهنأ بحبها، الذى من أجله تركت زوجها الأول وأولادها .. وهى تموت بعد وقت قليل من ولادة أوجستا. ولشهرة رجلها بالقسوة، يتهمه المجتمع بأنه وراء موت امرأته!

وسواء حدث هذا أو لم يحدث، فإن لورد بيرون الأب، يتناسى سريعاً المرأة التي ضحت ببيتها ومالها من أجله. ولا يعبأ حتى بالتظاهر بالحفاظ على تقاليد المجتمع، بالنسبة إلى الوفاة القريبة. فينغمس فى مغامراته النسائية، باحثاً عن فتاة غنية يتزوجها. ويستعين بأموالها على سداد ديونه التى لا تنتهى، بسبب الإسراف والترف والقمار. ويجد بغيته فى فتاة اسكتلندية، أصبحت وارثة منذ وقت قريب بعد أن مات والدها. وبالرغم من أنها كانت قبيحة، إلا أنه لم يعبأ بعدم جمالها ويتزوجها!

وكانت كاترين جوردون، التى ستكون أم شاعرنا، من عائلة ثرية عريقة .. يختلط دم ملكي بدمائها. خطت عليها مايشبه اللعنة، التي فرضت على أغلب رجالها .. أن لا يموتوا على فراشهم. بل فى حوادث دامية .. أكثرها الغرق والشنق! وكان أبوها نفسه قد انتحر غرقاً، حزناً على أبيه الذى مات غرقاً كذلك!. ولقد عرفت أسرة جوردون أيضاً، بالجفاء والشراسة والغلظة. وهى صفات اتسمت بها رجالاً ونساء! ولم تشذ عنها كاترين جوردون!

ومن البواعث الخاصة التى ساعدت على أن تكون كاترين أيضاً .. فظة ومعقدة وقاسية، أنها لم تقدر أبداً أن تخفف من وقع دمامتها فى نفسها! وإذا كان بعض النساء، تستطيع أن تعترف بقبحها وألا تعطى للأمر اهتماماً أكبر من حجمه، لأن القضية ليست حياة أو موت. وتسلم أمرها إلى الله. محاولة أن تعوض النقص الظاهرى، بجمال داخلى، يفيض على نفسها وروحها، وينعكس فى صلاتها الطيبة الحنون بالناس أجمعين. فإن الأم الشابة لم تفكر أن تفعل، بل التمست من الوسائل .. ماكان يفضح قبحها وقصرها أكثر! ولم تفلح الثياب والحلى، فى أن تجعل شكلها مقبولاً. بل عرضها ماكانت ترتدى لسخرية الآخرين، مما زاد من غليانها! ومع ذلك لم ترعو، بل استمرت تواصل أسلوب: لبّس البوصة تبقى عروسة! ولكنها اضطرت بعد قليل أن تتوقف مرغمة. ولم يكن السبب اقتناعها أنه لا فائدة .. بل بسبب قلة المال فى يدها!

فقد استولى زوجها والد طفلها، على أموالها أولاً بأول. وأرغمها على أن تبيع ممتلكاتها الكثيرة، قطعة إثر الأخرى. ينفق ثمنها على ملذاته، التى لا تشبع. حتى لم يبق إلا معاشها!

وكان أمراً باعثاً على الدهشة لدى كثيرين، أن تكون كاترين المقتصدة البخيلة بهذه السماحة والكرم! ولكن الذى جهلوه، أن تقديم النقود للزوج مفلوت العيار. كان هو الثمن الذى تشترى به "حب" زوجها لها! فقد أدركت منذ وقت طويل، ولعل ذلك منذ بدء معرفتها به. أن مالها هو

الذى عشقه لا شخص صاحبته! ولما كانت تحبه بجنون وتعبد الأرض التى يمشى عليها، فقد كانت مستعدة أن تبيع روحها فى سبيله. وحين جفت البركة و لم يعد لديها مالا يغرى، كان صريحاً فـي دناءته .. هجرها! وترك بيته وابنه وراءه، ميمما شطر دنيا غرائزه!

وكان يمكن للأم الشابة، أن تختصر دنياها فى طفلها الصغير. وأن تجد فى قربه والعناية به والحدب عليه، مافقدت من سعادة زوجية، وخيبة أمل فى حب الرجل. ولكن كاترين على العكس، تركت ماتملك إلى مالا تملك، وظلت مشغوفة الفؤاد مشغولة البال، بالطائر الهارب قاسى القلب الوسيم! حتى بعد أن بات الهجر أبدياً، عندما سافر إلى فرنسا، متصعلكاً كعادته .. ومات هناك فقيراً بائساً، بين أحضان فتيات الحانات!

فى هذا البيت ولد جون جوردون بيرون .. الذى سيعرفه العالم فيما بعد، باسم الشاعر العظيم .. لورد بيرون!

فى البداية لم يلاحظ على الطفل الوسيم بل الجميل .. شىء غير عادى. إلى أن بدأ تعليمه الوقوف على قدميه، وفوجئت الأم أن الصغير، أخذ فترة أطول مما ينبغى فى التدريب. بل اتضح أنه لا يستجيب بشكل جيد. فلا يكاد يضع قدمه ويقف، حتى تتلوى وتتهاوى. وإذا أكره على المشى، فهو لا يستطيع أن يفعل .. إلا بصورة غير سليمة. وهو يقف على أخمص القدم، فتبدو الخطوة عرجاء .. وتذهب الأم به إلى

الطبيب، الذى يكتشف أن الكعب به عيب خلقـى. وأن الأم نفسها تسببت فيه أثناء الولادة!

وبدأ علاج الصغير .. ومع العلاج بدأ العذاب. فلـم يكـن الطب متقدماً فى تلك الأيام. وكان أحسن مـايقدم فـى مثل حالة بيرون .. أحذية من نوع خاص، وربط القدم فـى المسـاء عند النوم بشكل قاس. ولم يفد العلاج القاصر، وظـل الطفـل يعرج .. ويتألم من عاهتـه بدنـاً وروحـاً. وإذا ظـن أن العـالم خـارج البيـت عنـه لاه، وملتفـت كـل فــرد فيــه إلى شــئونه وحدها، فقد أخطأ. لأن الناس بين متشف ومشـفق، يسـببان له التعاسة .. الأول من منطلـق البغـض، يكـوى الجـرح كيـاً. والثانى من منطلق الرحمة، يذكره وكأنه ناس بعاهته.

وعندما التحق بالمدرسة، ازداد الأمر سوءاً. فقبلهـا كـانت هناك مسافة بين المتشفين والمشفقين، فـى الشـارع أو الحديقـة أو المحال، وبينه. مهما تكن قصيرة فهى موجودة لا تتجـاوز، ربما بدافع بقية من خجل أو حياء أو حفاظ على المظهر. أمـا فى المدرسة بـين التلاميـذ، فقـد سـقطت هـذه الموانـع جميعـاً. وباتت عاهته تسلية وضيعة للشياطين الصغـار، أثنـاء الحصـص أو فى الفسـح. وفـي الأخـيرة لا يملـك بـيرون، إلا أن يجـرى وراءهـم ناقمـا مهـددا. ولكـن قدمـه لا تسـعفه فـى اللحــاق والإمساك بهم. ويكون جريه وعرجه وألمه، مدعاة للمزيد من سخريتهم.

وهكذا يتعلم بيرون في مدرسة الحياة، قبل أن يتعلم في الدراسة المنتظمة. أن الدنيا قوى وضعيف، وآكل ومأكول. وأن الإيذاء جبلة أو سمة بشرية. وأن الأذى يطول من لم يرتكب خطأ، وأن حب الشر في دم الإنسان. كما عرف بيرون مبكراً جداً، كيف يقسر المرء نفسه على هدهدة أحزانه. وكيف يتوحد مع العذاب داخل الذات.

وتكون قسوة المجتمع هذه خارج المنزل وفي المدرسة، المكون الأول لبغضه لهذا المجتمع فيما بعد وخروجه على التقاليد.

ويتوجه الصغير بآلامه وأحزانه، إلى داخل البيت .. ملتمساً الحب والعطف والفهم .. لاجئاً إلى حنته. ولكنه لا يجدها ويعثر على السراب. ويكون افتقاده لها هو عذابه الأكبر. فلم تكن أمه من الصنف العاقل فتبعد همومها الخاصة عن عالم الطفل اليتيم. لتطالع الصغير دائماً وماأمكن، بكل مايريح ويهدئ. وأن تدرك أن مهمتها الأولى والأخيرة، أصبحت القيام على تربية وحيدها .. معوضة إياه عن فقد أبيه، والفقر الذى وجد نفسه فيه. بل عمدت إلى الضد، كأن العشق الفاشل والزواج الخائب والمال الضائع .. امتصت أغلب مايضم القلب من حب وعطف وحنان. ولم يبق إلا أسوأ مافيها، الشراسة والعنف والحدة.

وأخذت تعامل الصغير كأنه رجل كبير، وكأنه المسئول عن كل ماأصابها من مصائب وويلات. ووصل الأمر إلى أن تعيره

بعرجه .. بعاهته. وكانت هـذه أقسى لطمة وجهتها إليه، وقد تكررت كثيراً. تقول أمينة السعيد:

"كان من المنتظر أن تحيط مسز بايرون ابنها الوحيد بعطفها ورعايتها مادامت قد فقدت الزوج الذى أحبته وضحت بالكثير من أجله. ولكن دماء جوردون لم تترك مجالاً للعطف والرعاية. وزاد الأمور تعقيداً حزنها المكبوت على ماحل بها من فقر وتقشف لم تعرفهما أو تعهدهما من قبل، فأصبحت حياتها سلسلة غضبات جنونية، تتعالى خلالها صرخات يسمعها السائرون فى الطريق، ثم يتبع ذلك تحطيم الصحون وتمزيق الثياب. وذاق بايرون الصغير الأمرين، وتفتحت عيناه على مشاجرات حامية الوطيس. وبدل قبلات الأم الناعمة قاسى الكلمات الخشنة الموجعة. ومنذ طفولته انصب فى أذنيه سيل الإهانات الجارحة التى تكمن فى القلوب، فلا تستطيع الأيام محوها."

ويكتب بيرون نفسه بعد ذلك:

"إن القلب الذى مزقته الخطوب شبيه بالمرآة المكسورة التى تتكرر فى كل أجزاء الزجاج، وتصنع آلاف الصور من صورة كانت واحدة، وستظل هكذا كلما ازداد تكسرها: فإنه لا يزال يحمل طويلاً كل آلامه، ويظل هادئاً، بارداً، خالياً من الدم، لا تأخذ آلامه سنة ولا نوم، لكنه يستمر فى الذبول حتى يشيخ كل ماحوله، دون أن يظهر أى شكوى، لأن هذه الأشياء فوق متناول كل تعبير".

وكان هناك شخص آخر في المنزل، يمكن أن يلجأ إليه الصغير في محنته. وهي ماري جراي، خادمة أمه التي أصبحت أيضاً مرضعته ومربيته. ولكنه لم يفكر على الإطلاق، في أن يتجه ناحيتها، رغم شدة حاجته إلى صدر حنون وقلب عطوف. والسبب أن المربية نفسها، كانت مصدر فزع لا يوصف للطفل! سواء بطبيعتها، أو ماتلجأ إليه من وسائل تخويفه. فقد كانت أيضاً قاسية، تقترب من مزاج الأم الحاد. وكأنها استغلت هذا المزاج في سيدتها، لتنفث سمه في تربيتها للصغير!

كما كانت ماري جراي أيضاً، مع معرفتها القراءة والكتابة .. جاهلة. لا تعرف من الدين إلا مايطرد الإنسان من رحمة الله! فصورت من ثم الحياة للصغير، كأنها اللعنة التي لا مفر منها. وهذا المفهوم الخاطئ للعقيدة، شوه صورة السماء في نفس الطفل، وجعلها مصدراً للعقاب والعذاب. وجهنم وحدها هي أبرز ملامحها، لأن الشيطان هو الملك المسيطر قبل غيره على أرواح البشر في الدنيا!

ومن الطريف أن المربية التي تندد كل ساعة بالخطيئة، كانت هي ذاتها شديدة الانغماس في الخطيئة! تتسلل كل ليلة بعد نوم والدة بيرون من المنزل، لتشبع بدنها بالحب. وقد شاهد الصغير ذلك كثيراً .. فلم يستطع ذهنه أن يوائم بين قول المربية وفعلها. ويقف على موضع الصدق في هذا وذاك.

وبذلك بذرت المربية الجاهلة فى أعماق بيرون، وهو عجينة تتشكل .. الشك فى الدين منذ الصغر.

ولكى تخدع مارى جراى الصغير عن مقصدها الليلى، لجأت إلى الوسيلة التى لا تعرف غيرها. وتظنها قوية المفعول فى إحداث الأثر الذى تطلب .. وهو الإسراع بالطفل إلى النوم لتتفرغ للهوها! وذلك بذكر العفاريت وتخويفه بالأشباح، والإيهام بأن المنزل مسكون! وأنها شاهدة عيان على الكثير من كائنات العوالم السفلية، التى تمرح فى أرجائه! ومع أن بيرون لم يقتنع تماماً بأغلب ماتقول، كما أدرك أن المربية تكذب عليه فى هذه المسألة بالذات، لغرض فى النفس. إلا أن السن الصغيرة لم تتمكن من أن تتخلص من الأثر المفزع لحكايات الأشباح! مما أضطره أن يدعى النعاس، ربما لإسكات الفتاة بطريق مباشر .. عن قص المزيد من القصص المرعبة فى الليل، ولتتركه فى سلام. وبعد أن تغادره المربية، يحاول أن يلتمس بعض الإيناس .. والحسرة تثقل عليه بظلامها، وماتركت مارى من أحواء الفزع. فيترك فراشه، ويقف بالقرب من النافذة .. الوقت الطويل. وقد داخله الاطمئنان قليلاً، وهو يستأنس بأصوات الناس التى تجيئه من قريب أو بعيد .. وكذلك بالأنوار الخافتة التى تصل إليه فى وقفته .. كأنها رسالة بشريّة مجهولة، تشارك فى طمأنته وتخفف من فزعه وقلقه. ويبقى المسكين فى مكانه لا يتململ، إلى أن يسرع إليه النوم أو البرد. فيعود إلى سريره وهو يكاد يتهاوى، ويغيب على الفور فى سبات عميق.

وبهذا الشكل ظلت المربية، مثار فزع للصغير بيرون .. فى نهاره وليله .. بفضل قسوتها وجهلها وطيشها.

وكأن الظروف تحالفت جميعاً، على إفساد حياة الصغير بيرون. وأصرت على أن تحرمه فى مختلف المجالات، من طفولة سعيدة. فبعد دور الأم والمربية، جاء دور المدرس الخاص! الذى لم يكن أسعد حظاً من سابقيه. وكانت السيدة بيرون قد ارتأت الاستعانة باثنين من المعلمين، لإعطاء وحيدها المزيد من الدروس للتقوية. رسى للتاريخ وباترسون للدين واللاتينية. وإذا كان الأول قد حبب تلميذه في التاريخ، فإن الثانى كرهه فى الدين!

كان باترسون يؤمن أن إرادة الإنسان معطلة، إزاء كل ماتقرر السماء! وأن المرء لا يستطيع أن يخط طريقه فى الحياة، على خلاف ماقدر الخالق. وأن مصير المخلوق فى اليوم الآخر .. قد حدده الله منذ بدء الخليقة! إلى جنةٍ أو نارٍ .. فلا فائدة إذن من المقاومة! أى باختصار .. إن الإنسان مسير لا مخير! ولا يقتنع الصغير بيرون .. فإذا كان هذا صحيحاً، فما قيمة الثواب والعقاب؟! ولماذا يكونان أصلاً، مادام الله هو الذى يحدد، بعيداً عن فعل الإنسان نفسه؟! وأين مسئولية المرء فيما تصنع يداه؟ وكيف يمكن أن يضع الله فى الإنسان، كل مايجعله حراً .. من عقل وإرادة ونفس وروح. ثم يقال له أنت لست كذلك! لأن الشر والخير مقدران تقديراً؟!

ويشعر الصغير الذكى بالظلم، وأن أبواب الأمل سدت فى وجهه. فلا فائدة من انتظار الرجاء أو العزاء الذى يحتاج، فى السماء كما توهم.

وتغلى أعماقه على مر الأيام .. وقد تكاثفت الظلمات حوله.

(٢)

لأن الحب بالنسبة إلى الإنسان، ليس عنصراً هامشياً أو كمالياً، لأنه فى صميم تكوينه وخلقه. فإن ضياعه لا يعني الاستغناء عنه أو إسقاطه من الاهتمام. فافتقاده يظل دائماً مبعث ألم وقلق وضيق، إلا إذا وجد البديل. وليس هناك من بديل للحب إلا الحب!

فإذا غاض الحب فى عالم الكبار بالنسبة إلى الصغير بيرون، فليبحث عنه بلا وعى فى مكان آخر .. فى دنيا الصغار. وهكذا يخفق قلب ابن التاسعة، لأول مرة للجنس الآخر!

ولاشك أن تكوين بيرون الوجداني ومزاجه الفنى وحسه الشاعرى .. وهى لا تزال فى طور الكمون والطفولة، فى هذه السن، شكلت استعداد صاحبها العاطفى المبكر.

كان بيرون قد أبل من مرض الحصبة التى أصيب بها، ووجدت أمه أن مزرعة جبلية أسكتلندية، مكان مناسب لاسترداد حيوية الصغير. وهناك انطلق بيرون يتزود مسحوراً، من مجالى الطبيعة العذراء. التى كانت ابنة صاحب المزرعة،

جزءاً منها. فمسه جمالها الفطرى، وأصبحت طوال فترة وجوده، رفيقه الدائم الذى لا يريد أن يفارقه أبداً. وكم كان أسفه شديداً، وهو يودعها عائداً إلى أبردين حيث بيته.

ولكن هذا الأسف لا يلبث أن يتلاشى، بعد أيام. وتصبح التجربة السابقة مجرد "بروفة" .. ليس بفعل الزمن .. بل لظهور صبية أخرى على مسرح الأحداث، من بنات أعمامه .. هي مارى داف. دقيقة التقاطيع ساحرة الملامح، أنسته سريعاً سابقتها. وهذه المرة كان حبه واضحاً قوياً طاغياً .. حتى خيف عليه بالفعل منه. ولم يكن يكتفي بالساعات التى يلتقى بها، بل يبعث إليه برسائل غرامية!

ولما كان فى ذلك العمر، لا يجيد الكتابة. ولا يعرف السبيل إلى تحبير الرسالة الغرامية ببراعة. ويأنف أن يعتمد على نفسه، ويكتب عبارات ركيكة وغير بليغة. فقد شغل مربيته كثيراً وأمه قليلاً، فى إنشاء خطابات هواه!

وهذا الحب هو الذى لفت النظر، إلى مدى قوة عاطفة بيرون الوجدانية. التى أخذت على مر الأيام تنضج وتتبلور. حتى أصبح بعد ذلك، واحداً من كبار العشاق فى العالم!

وتعقب أمينة السعيد قائلة: "ومثل هذا الحب عجيب ولاشك فى طفل لم يبلغ التاسعة من عمره بعد، وهو دليل على الحساسية المرهفة العميقة التى تكمن فى صدر هذا الصبى، والتي تجلت فى مواقف كثيرة فى حياته، وصيرت رجولته طوراً من التعذيب الطويل".

عرف وليم بيرون شقيق جد بيرون بأنه "اللورد الشرير" أو "القاتل" والسبب أنه اختلف يوماً مع أحد جيرانه، من أصحاب الضياع والقصور. وهو شاورث، فبارزه فى حجرة مظلمة فى إحدى الحانات وقتله! وتتابع أجيال ليلتقى الأحفاد على وئام، بعد أن سقط الثأر على مر الزمن. وكان "حفيد" القاتل هو صبينا الأعرج، الذى يظلع فى مشيته. ويبلغ من العمر خمسة عشر عاما .. لورد بيرون. الذى حصل على اللقب وهو فى العاشرة. أما حفيدة القتيل، فهى ماريان شاورث التى تكبره بعامين.

ولم تكن وسامة بيرون وحدها، هى التى جذبتها. بل مااشتهر عنه من رقة حديث، وقدرة على قول الشعر، وحضور قوى. ومع أن الفتاة كانت على علاقة حب مع آخر، وشبه مخطوبة له .. إلا أنها لم تجد بأساً فى أن تستمتع، بصحبة لورد شاب ظريف أنيس. ولكن بيرون لم يكن يعرف بصلتها بالآخر، بل أخذ إقبال ماريان مأخذه الجاد. وكانت طبيعته لا تسمح له بغير ذلك .. فهو صريح لا يخفى عواطفه. أمين فى مشاعره، صادق فيها .. لا يحاور ولا يداور. وهكذا استقبل إعجاب الفتاة وحبها، مستجيباً لهما خاصة بعد أن أهدته صورتها، وقدمت له خاتماً للذكرى!

ويندفع فى غرامه .. وكما يقول أحمد الصاوى محمد: "إنه لم يعد يتنفس إلا من صوبها، ولم يعد يوجد إلا من خلالها. إنها أصبحت بصره، لأن نظرته لم تعد ترى إلا بعينيها. إنه يدعوها "نجمة الصباح" .. لم يبح لها بالحب، ولكن للحب

ألف لسان .. إنه كان أحياناً، فى خلال نزهاتهما فى النهـار، ينفر الدم فـى عروقـه، إذا مسـت يـده يدهـا، أو لمس جسـمه جسمها!".

وبالرغم من أن قصـر بيرون يجـاور قصـر شـاورث، إلا أن أسـرة الفتـاة لم تـرد للفتـى أن يجشـم نفسـه تعـب المشـوار، فأصرت على استضافته وأعدت له حجرة خاصة. مكنته من أن يشاهد ماريان ويلتقى بها أغلب ساعات اليوم، فى القصـر وخارجـه. ولم يـدرك الفتـى الهـانئ، أن الفتـاة تتسـلى. وأن مايطالع من سعادتها به، ليس باعثها الحب. بـل فـوز الأنثى التى استطاعت أن تمتلك قلب الرجل .. وأى رجل. حتى لـو سلكت إلى ذلك، طرقاً غير أخلاقية!

وصدفة يتاح لبيرون، أن يعرف حقيقة مـاتكن ماريـان لـه. وكـانت الفتـاة تتحـدث إلى وصيفتهـا، وهـى مطمئنـة إلى أن اللورد الشـاب فـى مكـان آخـر بعيـد. سمعهـا تقـول بلهجـة سـاخرة: هـل تظنـين حقيقـة أننـى أعبـأ بهـذا الولـد الأعـرج؟ ويترنح الشـاب فـى وقفتـه، واللطمـة القاسـية تجئ علـى غـير انتظار. ممن يعد أقرب الناس إلى روحه، وتبادله عاطفـة ذائبـة بعاطفة أكثر ذوباناً. ومع أنه كاد يتهـاوى، إلا أنـه يسـتجمع قواه المبعثرة، ويمضى على الفور فـى طريقـه إلى قصـره والدنيـا ليل.

وماكان أشبه بيرون بقصره الطلل، فى تلك اللحظات. أنه مثله خراب، الموات فيه أكثر من الحياة. ومع الحزن أحاط بـه

اليأس، وذكر الموت الذى يريح من الآلام، وخسة الإنسان. ويمضى ليلة ليلاء، حطت على أعوامه الخمسة عشر .. كأنها ظلام سرمدى لا ينتهى. ومع بشاعة ماعانى، ومع كبريائه، فإنه لم يفكر فى قطع صلته بالغادرة! فقد كان عشقه أكبر من ألمه، والقرب منها أقوى من اعتداده بنفسه!

ولعله قارن بين قسوة ماريان، وبين أمه ومربيته .. فاختار الأولى. فطعنة الغريب مهما بلغت، فهى أكثر رحمة من طعنة القريب. وكانت كل من مسز بيرون وما رى جراى، قد ازدادت شراسة فى معاملته! فأمه وقد أكثرت من الشراب وقاربت الإدمان، لم تعد تكترث بآلامه أو كرامته. ويشجع هذا المربية، فتكثر من ضرب اللورد الصغير! بل ولا تستنكف فى غياب سيدتها، من أن تستقبل فى الشقة عشاقها من البلطجية!.وتسهر إلى ساعة متأخرة من الليل فى الخارج، بلا أدنى اعتبار أو التفات إلى الصغير!

لقد عظم إحساس ابن الخامسة عشر، المحروم من الحب، بالحب. وتطلع إليه كمنقذ، يمكن أن يفعل له الكثير .. الذى هو فى أشد الحاجة إليه. وفضل أن يقترب من النبع، حتى لو لم يشرب منه. وهو العطشان إليه .. الذى حرم عليه أن يتذوق قطرة منه. وهكذا يعود فى اليوم التالى إلى ماريان، كاتماً السهم فى قلبه .. كأن لم يسمع شيئا!

وتظل الفتاة مقبلة عليه ملتصقة به منشرحة بصحبته، لا تلقى بالا إلى ماتعرف مما يضم جوانحه من أشواق لها. فرحة

أن يكون لها مثل هذا العاشق الولهان! وينسى بيرون نفسه والدنيا، ولا يذكر إلا صاحبته. ويقبل العام الدراسى، فيتناسى. وتكتب إليه أمه مذكرة، فيعد بسرعة العودة ولا يفعل. ويقلق عليه ناظر المدرسة المعجب ببيرون، فيكتب إلى محامى اللورد متسائلاً. ويبعث الأخير إلى الأم دهشاً .. فتجيب برسالة تقول فيها بصراحة "لم أستطع حمله على العودة إلى المدرسة. رغم مابذلته منذ ستة أسابيع، بأقصى جهدى. وهو لا يشكو مرضاً إلا الحب، الحب اليائس، وهذا عندى أشنع الأمراض. وقصارى القول: أن الصغير مخبول حباً بالآنسة شاورث، وقضى إجازته كلها فى قصرهم بأنسلى. ولو أن ولدى كان فى سن مناسبة، وكانت الآنسة غير مخطوبة، لكانت هذه العلاقة هى آخر ماأريده ارتباطاً بها"!

وليس مثل العاشق خاصة إذا كان فناناً وشاعراً، شدة حساسية. ويدرك بيرون فى أتون غرامه، الذى لم يلغ عقله.. الجديد الذى طرأ على معاملة ماريان له. فهى لم تعد خالصة فى تقبل إعجابه بها وحبه لها، حتى ولو لم تبادله إياهما. بل تعمل على استغلال هذا الإعجاب والحب، فى توكيد سلطانها عليه واللعب بعواطفه .. كما يلهو القط بالفأر. وساءه أن تهبط صاحبته إلى هذا الدرك، وأن تنزله من نفسها هذه المنزلة الساقطة. وحاول أن يعيد العلاقة إلى سابق عهدها، ولكن الفتاة التى ازدهت بقوتها، ساءها أن تجد مقاومة لاستبدادها. فلجأت إلى مزيد من الضغوط .. ولكن الشاب فى محاولة لعدم قطع الخيط السحرى الذى يربط بينه وبينها، تجاهل

ضغوطها. فساءها ذلك وجاهرت بما تحمل، ظناً أنه أضعف من أن يتمرد عليها .. كما أنه يحب قيوده. وكانت واهمة. لأن بيرون لم يلبث أن ثار لكبريائه، وهو يقف على المهانة التي لحقته من فتاة خليعة. فتركها وعاد إلى مدرسته، بعد أن انقضت ثلاثة أشهر على الدراسة!

ومن كلمات بيرون فى هذا الصدد، قوله:

"من يحبب يهذ، فإن الحب هذيان الشباب، وعلاجه أشق وأكثر مرارة.

"أى جروح تندمل، دون أن تترك ندوباً؟ إن جراح القلب تدمى. أطول مما تدمى سائر الجراح، وندوبها لا يمكن يوماً أن تمحى. إن من يصارع آماله هو نفسه ، ويخرج من هذا الصراع مهزوماً، يخلد إلى الصمت، لا إلى الإذعان. إن النمل يصمت فى مغارته إلى اللحظة التى تدق فيها ساعة الانتقام المرتقبة منذ سنوات طوال. فلا يقنطن إمرؤ، لقد أتى وسيأتي اليوم الذى يهب القدرة على المعاقبة أو المغفرة. ونادراً مايغتفر الانتقام"!

ولايمضى الحادث بلا أثر، فقد كان عظيم الخطر فى حياة بيرون. فقد استوعب الدرس جيداً. والثمن الفادح الذى دفعه من نفسه، مما حفر فى أعماقه أخدوداً طويلاً .. يفرخ فيه البغض للمرأة، التى أهانته فى عاطفته. بعد أن خدعته بلا مبرر، فيما تكن له من إحساس. وبذلك كملت اساءة الجنس الآخر له، فى أعذب ماتمثل المرأة .. أمّا ومربية وصبية!

درسا يكون له مابعده فى نظر بيرون إلى الأنثى، والتعامل معها. متخذاً علاقته بها على أساس جديد تماماً. هو كما يقول: ملهاة لقطع الوقت!

ويكتب فى إحدى رسائله فى هذه الفترة:

"الحب فى رأيى المتواضع، هو سخافة تامة، وطنطنة مديح وإطراء، وهزال خيال، وخلب ضعة! أما مع نفسى، فلو أن لى خمسين صاحبة، لنسيتهن كلهن جميعاً، فى خمسة عشر يوماً. وإذا ماخطرت لى بطريق الصدفة إحداهن، فسأضحك منها، كما لو كنت فى حلم، وأبارك نجمىالذى أنقذنى من شيطان الحب الأعمى"!.

(٣)

لو أدركت ماريان ماصنعت حماقتها بالفتى الأعرج لورد بيرون، بالنسبة إلى النساء عامة، وهى خاصة فى المستقبل القريب والبعيد. لفكرت ألف مرة قبل أن تقدم على العبث بعواطفه كما فعلت. ولكنها ظنت أن أمور الحياة ثابتة، وأن تكوين الناس لا يتغير. وأن الفتى الخجول البدين بيرون، سيظل هكذا إلى آخر العمر. وأنها هى ستبقى ماريان التى تستطيع أن تلهو به وقتما تريد. ولكنها لم تعرف أن هذا الفتى ذاته، سيذيقها من نفس الكأس التى قدمتها له قبلاً!

ترك بيرون الفتاة وقد أصبح مخلوقاً آخر. نعم أكثر توحداً وخجلاً من عاهته أو بسببها، ولكنه أيضاً أكثر صلابة وقوة. نعم لقد ظل صاحب القلب البرئ الطفولى، ولكن فى نطاق

الفن وحده وآلهة الشعر. أما فى مجال المرأة والحب والجنس. فهو صاحب القلب الرخامى. لم يعد الإنسان الساذج الذى يقبل على الأنثى، متهيباً متبتلاً فى المحراب. يحس أن كفته هى الأخف والأضعف، وأن حاجته إليها تغفر لها كل نزواتها بل تبادل هو وإياها المواقع، أو فرض ذلك. وكما أنها لم تمانع بالطبع، فقد اقبلت عليه أكثر وترامت على عشقه!

كانت خيبته مع ماريان، باعثاً له أيضاً على أن يغير من بدانته وامتلائه. ويسلك فى سبيل ذلك نظاماً غذائياً قاسياً، مكنه فى النهاية من أن يصبح رشيقاً بل مثالاً للرشاقة! وهكذا يستقبل عهداً جديداً فى مدرسة هارو ثم فى جامعة كمبردج. البون فيه شاسع بين أمسه ويومه.

وتعددت غراميات بيرون فى هذه الفترة، بأسلوب الباحث عن اللذة وليس عن الحب. دون جوان الذى يجعل من العلاقة بين الرجل والمرأة، فنا جميلاً يرتضيه الجانبان العابثان. الصنعة فيه أكثر من الروح، تتنحى فيه الأخلاقيات والمثل جانباً، لتسود الغرائز. وليست العلاقة التى تستهدفها السماء والطبيعة، فى سبيل تكوين أسرة وتربية أبناء.

وفى هذا المجال يقدم بيرون نصائحه، التى اكتسبها بجدارة من الفشل! فيقول:

"لا يعرف قلب المرأة جيداً من يظن أن حبها يكتسب بالتنهدات والزفرات. فماذا يعنيها من أمر اكتواء القلوب، إذا مالمتلكها فؤاد إنسان آخر؟ لا تظهر كثيراً من الضراعة والذلة

حينما تصف غرامك لمعشوقتك، على الرغم من حرارة أوصافك وبلاغة تعبيرك عنه. وإذا كنت حكيماً، فاستر حتى رقتك وعطفك، والثقة السريعة تفيد جيداً في امتلاك المرأة. هيجها تارة، ولاطفها أخرى، يتوج غراما سريعاً أحلامك وأمانيك"!

يقول بيرون في "دون جوان": الفضيلة والرذيلة كثيراً مايتبادلان موضعهما بين الناس، حيث تقوم المظاهر مقام المحور الذى تدور عليه مقومات الطبقة العالية فى المجتمع"!

وينغمس بيرون فى اللهو والمرأة والخمر والميسر، ويفعل ذلك بإصرار لا يحيد عنه .. كأنه مكلف به! وكأن الهدف هو أن يثأر لنفسه من التى خدعته. يكتب الشاعر الكبير فى "أسفار تشايلد هارولد": "آه! أيتها الرذيلة، يالشدة إغراء سبلك الشهوانية! من ذا يستطيع، حين يجرى فيه دم الشباب حاراً فائراً، أن يفر من فتنة نظراتك الساحرة؟ إنك تطاردينا على هيئة حية ذات محيا كمحيا الملك، وتتشكلين بأشكال عديدة وفقاً لأذواقنا معشر البشر"!

ومع ذلك لم يتسم بيرون فى مغامراته النسائية، كما فعل غيره بالدناءة والخسة. بل كان صريحاً منذ البداية مع الطرف الآخر، فيما يأخذ فيه من لذة. ولم يتوسل أبداً بخداع أو إيهام بعاطفة غير حقيقية أو تلويح بزواج. وفى ذلك يقول برتون راسكو: "كان الدستور الذى يجرى عليه بيرون دستوراً

تقليدياً في حقيقته، وإن كان شعوره الأخلاقي شعوراً طهرياً رفيعاً في طهريته".

لقد ساير بيرون تقاليد المجتمع الإنجليزى الراقى، ولو ترك نفسه على سجيتها .. لما كان إلا ذاته .. الإنسان العاطفى الرقيق الخجول المنطوى. الذى يريد أن يعبر عن أشواقه إلى الحب والمجهول والحرية .. ولما قارف ماسلك من نزوات.

وكان الظن أن بيرون نسى ماريان شاورث، التى يعتبرها حبه الأول الحقيقى. بعد هذه السنوات التىعرف فيها كثيرات غيرها، لم يحرم معهن من أية لذائذ، كما كان شأنه مع صاحبته القديمة. ولم يكن ذلك صحيحاً، حتى لبيرون نفسه!

عاد لورد بيرون إلى قصره فى نيوستيد، وقد كان يحبه قبل أن يتعرف على ماريان ابنة الجيران! ودعاه حاك زوج ماريان إلى القصر، وهو يعرف ماكان بين بيرون وامرأته. ويلبى الشاعر الدعوة، مطمئناً إلى أن الماضى السحيق قد انتهى أمره منذ زمن طويل، ولا يمكن أن يعود. ولكنه كان واهماً! فهو مايكاد يلتقى بها، حتى تتضعضع حواسه ويغدو مرة أخرى مراهقاً مسكيناً!

يكتب بيرون فى مذكراته عن هذا الحدث:

"تعشيت بالأمس إلى جانب المرأة التى تعلقت بها، طفلاً، بقدر مايستطيع أن يتعلق الأطفال، وأكثر كثيراً مما ينبغى لرجل أن يتعلق بامرأة .. فقررت أن أكون شجاعاً، وأن

أتكلم ببرود .. بيد أنى ماكدت أراها حتى خانتنى شجاعتى، ولم ينفرج فمى مرة واحدة عن ابتسامة، ولم تكد شفتاى تنبسان بكلمة، ولم تكن السيدة دونى سخافة وجموداً، مما لفت أنظار الحاضرين إلينا، أكثر بكثير مما لو كنا تصرفنا بلا اكتراث .. وقد يبدو هذا كله ساذجاً .. أى مجنونين نحن! إننا نبكى كالأطفال، من أجل لعبة .. لا نستطيع أن نفعل فعلهم، فنتخلص من لعبتنا بإلقائها فى النار"!

وإذا كان من الطبيعى أن يتعرض بيرون لهزة عميقة، إزاء اللقاء. فقد كان زمان هوالمعنى والمحروم والمطرود من الجنة، بينما هى الجانية. ولكن أن تتعرض ماريان لنفس الهزة، التى لم تعرفها فى عهدها القديم، ومع أنها أصبحت زوجة وأمّا .. فهو الذى يستأهل الدهشة!

لقد فوجئت بإنسان آخر تماماً، هو الذى يقبل عليها. ولم يكن مظهره وحده برشاقته ونحوله، الذى تبدل .. بل شخصيته أيضاً. فقد أصبح يملك حضوراً قوياً وآسراً، من غير أن ينطق بكلمة. وبصعوبة أخذت تصدق أنه هو نفسه بيرون الذى أحبها يوماً، ولم تستجب إلى غرامه. وألجمتها المفاجأة، حتى لم تعرف كيف تتصرف وتكون على طبيعتها .. وتبعد عن نفسها وقع تأثيره. واختارت الصمت طوال زيارته، فلم تتكلم إلا قليلاً جداً.

وتناقش الأمر بينها وبين نفسها، حينما خلت إلى أفكارها .. بعد أن عاد بيرون إلى قصره المجاور. ليس ببرود كما

كانت تفعل زمان إزاءه، بل بحماس. ولم يدهشها ذلك، فهى تدرك أن تأثيره اليوم عليها غير تأثيره بالأمس البعيد. فلاشك أنها سحرت به، وأن أية مقارنة بين بيرون وزوجها، ليست فى صالح الثانى. وكانت فورة الحب التى حملتها ماريان لجاك، قد هدأت منذ وقت غير قصير. وهكذا بدا لماريان. أن مجئ بيرون .. ماهو إلا قرع لأجراس الحب، توقظها من جديد! وعندما استقبلت نومها، كانت ابتسامة سعيدة ترف على شفتيها!

واختلف اللقاء التالى تماماً عن الأول، بالنسبة إلى الإثنين معاً. أمّا هى فبعد أن تخلصت من وقع المفاجأة، تسلحت بكل ماتملك من فتنة لتغوى الفنان دون حوان. فهى هذه المرة، المتدلهة حباً، المتعطشة إلى رحيقه. أما هو فلم يخطر الغرام له على بال! ففارق كبير بين ذكرى الهوى، وبين بعثه إلى الحياة من جديد! ولذلك بدا غير مستثار عاطفياً، مما أدهش العاشقة الجديدة. التى ظنت أنه يكفى أن تفصح قليلاً عما بها، ليستجيب صاحبها القديم على الفور! وغضبت المرأة للمهانة التي لحقتها، وهى التى كانت إشارة من أصبعها فى الماضى، كافية لأن يجثو على ركبتيه!

ولم تيأس ماريان .. أخذت تطارده عاطفياً بكل مافى وسعها .. بلا فائدة. ويقرر بيرون أن يقطع عليها الطريق، ويترك قصره ويرجع إلى لندن. بحجة الاستعداد للسفر إلى الخارج، الذى كان يفكر فيه منذ وقت طويل. وإذا أخفقت فى أن تقيم معه علاقة غرامية، فهى تتمنى وهى تسأله عن.

الباعث على رحيلـه .. أن يضـم بين جوانحـه .. رغبـة فيهـا! ويبعث إليها إجابته شعراً ..

"إذا ماطرد الرحل من جنات عدن، تلكأ عند بابهـا لحظـة، يذكر سـعادة خالية، فثار على حظه ولعن الأيام القادمـة. ولكن عندما حال في بلاد أخـرى، تعلـم كيـف يحتمـل الألم. ووجد عزاء في حياته الجديدة، فتنهـد فقـط لذكـرى القديـم. هـذا هـو حـالى، ولـن أرى سـحرك مـرة أخرى، ففـي التقـاء عذابي، وفي قربك حسرة دائمة. سأكون حكيماً إن رحلت، وهربت بعيداً عـن الإغـراء، فـلا استطيع أن أرى جنتـي، ولا أرغب العيش فيها من جديد"!

وعندما استعد بيرون بعـد ذلـك بوقـت غـير قصـير، للقيـام برحلتـه. يكتـب إليهـا، قصيـدة أخـيرة، ينبئهـا فيـه برحيلـه. مشيراً إلى ".. إبحار السفينة ذات الشراع الأبيـض وهـي تهـتز في العاصفة .. وقد كتب عليه فراق هذه الأرض، لأنـه أحـب فيها امرأة واحدة"!

ويعقب أحمد الصاوى محمـد قـائلاً: إن الحـب الأول، علـى أى حال، يدمغ حيـاة الفتـى بطـابع قـاس .. ومـن بـين جميـع التذكارات الأليمة، والتذكارات البهيجة، التي أحب بيرون أن ينسـج منهـا أحلامـه العزيـزة، ظلـت أيـام أنسـلي: أروعهـا، وأوجعها"!

(٤)

الفنان الحقيقى هو أول ناقد لإبداعه .. يعرف قبل غيره مواطن القوة والضعف فى عمله. وللقاعدة دائماً استثناء، وكان بيرون من الصنف الأخير! رجع من رحلته الأولى إلى بعض البلدان الأوربية، التى استمرت عامين .. بعملين شعريين. الأول "لمحات من هوراس"، والثانى "أسفار الطفل هارولد". وكان رأى بيرون سيئاً فى الديوان الثانى، ولذلك أغفله عندما سأله صديقه الناشر، عن الجديد الذى كتب ليصدره له. فقدم إليه الشاعر العمل الأول فخوراً. ولكن الناشر لم يجد فيه مايستحق الفخر .. فالديوان ضعيف لا يرقى إلى مستوى شعر بيرون. وحاول أن يغلف رأيه بشكل مهذب. فسأله ألم يكتب شيئاً آخر أثناء الرحلة، فأجابه مضطراً بما أغفل ذكره.

وأصر الناشر على أن يطلع على "أسفار تشايلد هارولد" أو "الطفل هارولد". وفوجئ دلاس أنه يقرأ تحفة فنية، وأدرك بحسه النقدى، أنه كتاب الموسم بلا منازع. وصدق!

فما كاد يصدر الديوان حتى انتشر بشكل مذهل، بين جميع القراء ومختلف الطبقات .. فلا يكاد يخلو منه بيت. متجاوزا بذلك عالم المثقفين إلى غير المثقفين. وصل بصاحبه فى يوم واحد إلى القمة. وبفضله قال بيرون عبارته المشهورة التى يضرب بها المثل فى العالم كله. وهى: لقد استيقظت ذات صباح فوجدت نفسى مشهوراً"!

وأصبح الفنان الانطوائى .. قبلة الأنظار. ويتعطل المرور أمام الفندق الذى ينزل به فى لندن. ويدعوه الوصى على العرش للقائه، وتتهافت عليه الدعوات. وبين غمضة عين وانتباهتها، يبرز اسم بيرون بين نجوم المجتمع المعدودين! وتكون المرأة أكثر انجذاباً إلى النجم الجديد!

تصف أمينة السعيد بحسها النسائى هذا الانقلاب فى حياة بيرون بقولها:

"هبطت الشهرة المفاجئة على بايرون، وهو فى الرابعة والعشرين من عمره. وكان إذ ذاك قد اكتمل جماله، وبلغ حسنه درجة تأخذ بمجامع القلوب .. فشعره كستنائى غزير يتهدل فى تموجات طبيعية رائعة، وقوامه نحيف رشيق، وجلده باهت شفاف كأنه من البلور .. فمه صغير ممتلئ الشفاه، وعيناه زرقاوان يشوبهما ظل رمادى، وصوته موسيقى رخيم حتى سماه الأطفال "الرجل الذى يتحدث كالموسيقى"! ولما كان بايرون قد أصبح -كما ذكرنا- موضع عبادة نفسه وتقديسها، فقد رعى ذلك الجمال وتعهده بعناية فائقة. وعندما تفتحت أبواب القصور أمامه، لم يهبط على من فيها شاعر عظيم فحسب، بل هبط أيضاً وجه ملائكى خرت له النساء ساجدات!"

ومع كثرة النساء اللاتى عرفهن بيرون، فى ذلك الحين. فإن واحدة هى التى لونت حياته، بصورة زاعقة. كان الشاعر فيها يكاد يكون مجنياً عليه .. بغرام بطلتها ليدى كارولين!

عاشت كـارولين حيـاة مدللـة، إشـاراتها أوامـر، ونزواتهـا مستجابة. عرفت بغرابة الأطوار وشذوذ الطباع، كما كـانت هوائية المزاج. تتلاعب بهاعواطفها أو تتلاعب هى بهـا، مـن النقيض إلى النقيـض .. بـلا تمهيـد أو موجـب. وأتـاحـت لهـا عراقة أسرتها وثراءهـا، الإغضـاء الدائـم عـن سـلوكها. ولمـا دخلـت فـى طـور الشـباب واكتملـت محاسـنها وعـدت مـن جميلات عصرها .. أضحت هذه النزوات من قبيل دلال الأنثى أو ظرفها، التى يستملحها الرجال!

ولم تكن الفتاة يوماً من المقتصدات فى علاقتها مـع الجنـس الآخر، حتى بعـد أن تزوجـت! ولم يكـن زوجهـا يجهـل هـذه الخصلة فيها، لأنه كان أصلاً واحداً مـن المعجبـين بهـا. وهـو نفسه من المتحررين، الذين لا يـأبهون كثـيراً بمـا تواضـع عليـه الناس من أخلاقيات! وقد ازدهاه أن تكـون امرأتـه علـى هـذه الشاكلة. واستمرت كارولين تمارس هوايتهـا بعـد الـزواج .. على مشهد من الزوج "الرياضى" الفكر!

شخص واحد من الأسرة فقط، هو الـذى استنكر مسـلك الزوجة الطـائش .. وهـى أمـه! وكـانت كـارولين تعيـش مـع حماتهـا. وبـاعث الاستنكار ليـس لأن الأخـيرة مـن ذوات الفضيلة، فلم تكن ليدى ملبورن كذلـك! ولكـن لأن صراحـة كارولين، تفضـح مـايجب أن يسـتر! والمغـامرات النسـائية فـى رأيهـا، وهـى مشـروعة للمـرأة كمـا هـى لـلرجل .. تتطلـب الكتمان لا الإفشاء!

هذه هى المرأة .. أى كارولين، التى أعجبت بيرون .. وأرادته أن يكون لها!

بالرغم من أن بيرون أسعده، أن يكون محط إعجاب وحب واحدة من قمم المجتمع الإنجليزى. إلا أنه لم يستطع أن يغرم بكارولين! وكان هناك أكثر من سبب!

فهو يربأ بالحب أو العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة، أن تستجيب بآلية إلى مايطلب منها .. سواء هذا الطرف أو ذاك! ويكون على أهبة الاستعداد فى أى وقت .. للتلبية! فهذا انحطاط بالحب إلى درك أسفل، لا يجيزه عالم الحيوان الذى لا يمارس الجنس، بالضغط والإكراه .. أو مايشبهما! بل فى جو من المداعبة والإيناس. ولكن المجتمع الراقى المترف، لم يعد يحفل بإضفاء اللمسة الإنسانية على حاجاته!

ومن ناحية أخرى، لم يكن بيرون يستسيغ الغرام بامرأة متزوجة. سواء كان يصادق هو الزوج، أو لا يفعل. حتى لو تخفف المجتمع نفسه فى ذلك! أما الباعث الثالث، الذى لم يشجع بيرون على الاستجابة إلى عواطف كارولين. فهو بغضه الشخصى للخيانة .. التى هى مزيج من الضعة والجبن. وهى أشياء يكرهها الشاعر الصريح فى الإنسان. خاصة إذا كان منتمياً إلى الطبقة الراقية، التى زودته بكافة الأشياء، ولا حاجة إلى أن يسقط فى منحدر الابتذال!

وعمد بيرون فى البداية وبوضوح، إلى أن يفرق بين تبادل الإعجاب أو الصداقة . وبين الاستجابة إلى العشق. فمع أنه

يكثر من زيارتها، بل ويقيم فى قصرها أحياناً ممثلاً الصديق المفضل .. مشاركاً فى حياة الأسرة. إلا أنه لم يخلط ذلك بما يتجاوزه، من أمور غرام. ولم تكن كارولين فى حاجة إلى من يكشف لها الجفاء المقنع للشاعر .. تجاه عواطفها. ولكى تختصر المسافة بينه وبينها .. لجأت إلى كل ماتعرف أنه يريحه ويسعده .. ومن ثم يقربها منه. وشيئاً فشيئاً وجد نفسه بين أحضانها!

لقد لعبت العادة مشفوعة بدهاء الأنثى، لا الحب .. دورها الآلى غير المفكر فى قبول غير المقبول. الذى لم يبعد أكثر من طرف اللسان، ولم يقترب أبداً من القلب. مما وسم أسلوبه فى علاقته معها، بالجفاف والجفاء والخشونة. وهى أبعد الأشياء عن المتعة والغرام!

ومنذ البداية ضاق بيرون بهذا الحب، الذى أقحم عليه. وأحس أنه أوقع به فيه، وهو لم يسع إليه أو يتمناه. وأخذ يفكر فى وسيلة ينقذ بها نفسه من المأزق، الذى أحاطه. وكان أيسرها أن يقلل من زيارته، أو يعتذر عن حضور حفلاتها. وعندما فعل قامت القيامة!

فالمرأة العاشقة ألغت من حسابها، العالم حولها .. حتى زوجها وأولادها. وأخذت تدافع عن غرامها، بكل ماأوتيت من قوة وحيلة! فهى تبعث بخدمها مرات فى اليوم الواحد، إلى بيرون .. يحملون رسائلها واستعطافاتها .. أو يراقبون خطواته! ولا تأمن إليهم، فتتنكر فى أزيائهم، وتطرق الباب

على الحبيب المختفى! وتتابعه إذا ذهب فى زيارة أو حفلة، وتنتظره فى الطريق بالمرصاد، إلى أن يخرج .. وتحادثه متوسلة أن يعود إليها!

وبالرغم من أن بيرون لم ينقطع عنها تماماً، لأن دون ذلك قطع الرقاب. إلا أنها لا تكتفى أن يلتقى بها بين الحين والحين، بل تريد علاقة دائمة مستمرة! وبات إلحاح كارولين لعنة .. لا يعرف الشاعر كيف ينجو منها! خاصة بعد أن ذاعت وشاعت، وأصبحت مادة فكهة فى أحاديث المجتمع. ويحاول بيرون أن يهدئ من غليان عواطف العاشقة الجامحة، فلا يبلغ من ذلك شيئاً!

وتدفعه المعاناة إلى المزيد من الضيق بحواء ككل. وتتبلور كراهيته فى هذا الجنس، الذى لم يجيئه منه إلا العذاب مختلف الألوان! ولا ينقذه من انفلات عيار كارولين وحصارها، إلا أسرتها. وبالذات أمها وحماتها، بعد أن أصبحت سيرة العاشقة وانحدارها، على كل لسان. بعد أن هددت بالبقاء النهائى عند بيرون، وبعد أن هربت بالفعل من أسرتها! وكان الحل هو إبعادها زمناً عن لندن، حتى تهدأ العواطف والفضائح معاً، ويسدل عليهما ستار النسيان!

وأنقذ بيرون .. ولكن إلى حين!

لم تمض أيام قلائل على رحيل كارولين، حتى بدأت تبعث إليه برسائل الحب. تصور ماتعانيه من آلام ببعدها عنه وأشواقها إليه. ولما لم يرد، كتبت إليه مهددة . إن لم يجب

على خطاباتها، فستضطر إلى المجيء إليه. وخــاف بـيرون من إنذارها، وهو يعرف قبـل غيره .. مـدى جدية صاحبتـه فـي تحقيقه على الفور! فأذعن! وأخذ يرد على رسـائلها. وضـاق الشاعر ذرعاً بهـذه العاشـقة الطائشـة المستبدة، التـي تحـاصره قريبة وبعيدة. فقـرر أن يـترك لنـدن إلى الريـف، يستجم فـي هدوئـه .. بـين الطبيعـة العذراء التـي يحبهـا. وكـانت أسـرة أكسفورد قد دعته إلى ضيعتها، فأجاب الدعوة.

وعملت ليدى أكفسورد على أن تهيئ له أسباب الراحـة، وتخفف عنه ماكان من كارولين. وسواء أكـانت صادقـة فـي مسعاها، أو أنها تبغى مصلحـة خاصـة، فقـد آمنـت أن شـفاء بيرون من آلامه، يكون فى حب جديـد .. يشـغل نفسـه بـه، على أن تكون هى لا غيرها صاحبته! ورحـب بـيرون .. فقـد كان فى أمس الحاجة إلى صدر حنون .. يهدهد أحزانه ويزيل ضيقه، ويستعيد به قواه!

ولكن كارولين لا تتركـه يهنأ بحبـه واستجمامه فرسـائلها تتبعه فى منتجعه! وهذ المرة لا يكون بيرون وحده هو المغتاظ، فالعاشقة الجديدة ليدى أكسفورد أكثر غيظاً .. من "ضرتها"! وتشجعه على الإسراع بالرد. على أن يكون بـاتراً قاسـياً، لا يعرف الرحمة! ولا تتركه لأسلوبه .. خوفـاً من أن يـرق قلبـه كالعادة! بل تشاركه فى وضع عبارته. ويكتب بيرون:

"لم أعد أحبك .. ومادمت تضطهدينني بتلك المطاردة التي لا تناسب الأنوثة، فاعلمي إذن أنني متعلق بسيدة أخرى، يمنعني الشرف من ذكر اسمها .. وسأذكر بالشكر اللحظات السعيدة التي تمتعت فيها باهتمامك .. وسأبقى دائماً صديقك، إن سمحت لي أن أكون كذلك. وأول برهان على حسن مقصدي نصيحتي هذه: أصلحي غرورك المزري وانشري نزعاتك الشيطانية على غيري، واتركيني في سلام"!!

وقبل أن يصل الخطاب القاسي إلى كارولين، تكون هي قد حبرت رسالة أخرى .. إلى ليدي أكسفورد نفسها! تطالبها أن تتدخل لدى بيرون، ليغفر لها ويسمح بأن يعود إلى حبها! ولا يكاد تصلها كلمات بيرون الحاسمة المنددة، حتى تقع مغشياً عليها .. مدركة أنه الفراق النهائي. وتسقط مريضة في خطر، وتلازم الفراش طويلاً .. أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. وعندما تستعيد بعض صحتها، لا يعود هناك داع إلى البقاء في "المنفى". وترجع إلى لندن ضعيفة شاحبة إلى درجة مفزعة أدهشت الكثيرين.

ومع هذا كله لم يغرب عن بال كارولين طيف بيرون، ولا عن القلب حبه، وظلت محتفظة بالأمل في عودة المياه إلى مجاريها، بينها وبين الشاعر العظيم. الذي أصبح عشقه عقيدة ملكت عليها روحها. كانت مقتنعة أن لقاء واحداً يضمهما، كاف لإيقاظ الحنين في قلبه. وتحاول باستماتة أن يتحقق هذا اللقاء، فلا تتمكن. وتهبط أحلامها درجة، فتتمنى أن تراه مرة واحدة وتموت! وصعب على حماتها، أن تصل زوجة ابنها

العاشقة لغير ابنها - فى مكابدة الغرام .. إلى هذه الدرجة! فترق وتتدخل .. وتشترط على كارولين، أن لا يقتصر اللقاء مع بيرون عليهما وحدهما .. بل ينضم إليهما ثالث وتوافق المتيمة .. ويوافق بيرون، على أن يختار هو الشخص الثالث ولا يعترض أحد. ولكن عندما تجد كارولين، أن هذا الشخص هو من أخذت مكانها فى قلب بيرون وحياته .. ليدى أكسفورد .. ترفض على الفور هذا الإذلال. وتنعى على الشاعر قسوته، ولا يتم لقاء!

وتظل كارولين تتحين الفرص، وهى على أحر من الجمر، تكاد تشتعل غضباً وحنقاً على الحبيب الغادر! تقول أمينة السعيد: "وجن جنون ليدى كارولين فأقامت حفلة كبيرة أحرقت فيها تمثالاً صغيراً لحبيبها. ورقصت خادماتها حول النيران، وفى نهاية الرقص ألقت فيها خصلة من شعره التى تحتفظ بها، ونسخاً من خطاباته، وختمت الحفلة بقطعة شعرية من نظمها، وأرسلت إليه تفاصيل هذا العمل الجنونى، فازداد احتقاره ومقته لها.

"ولم تنته المأساة عند هذا الحد. ففى اليوم السادس من شهر يولية عام ١٨١٣ أقامت إحدى النبيلات حفلة راقصة، وتقابلت فيها كارولين مع بايرون، فتبادلا بضع كلمات قاسية، وانتهت بأن اختطفت سكيناً من فوق المائدة وشهرته فى يدها، فنظر إليها فى احتقار وبرود وقال:

- هيا ياعزيزتى، ولكن إذا كنت تلعبين دور البطولة، فأحسنى اختيار ضحية سكينك، ولتكن الطعنة إلى قلبك أنت، أما قلبى فقد طعنته كثيراً من قبل!

"ثم دار على عقبيه وترك الغرفة. لم يعرف المدعوون ماحدث بالضبط، ولكنهم رأوا ليدى كارولين تجرى بينهم، والسكين فى يمينها والدماء تسيل من ذراعها الأخرى، ثم تمايلت وسقطت على الأرض مغمى عليها! وكان بيرون فى ذلك الوقت يتحدث مع إحدى السيدات فى حجرة أخرى، فلما سمع ماحدث قال فى برود:

- ألعوبة أخرى من ألاعيبها المعهودة!

"وبعد ساعات قليلة عرف أهل لندن جميعاً ماحدث، وكتبت الجرائد القصة تحت عنوان "فضيحة كبرى" وثارت ثائرة الرأى العام".

وتحفل كتابات بيرون فى هذه الأثناء، عن ضيقه الشديد .. بما تسبب له كارولين. من ألم وتوتر وغضب .. لا بها وحدها، بل بالنساء عامة. وتتأصل كراهيته لصنف حواء أكثر. فالمرأة حرم منها أو لم يحرم، شوكة فى جنبه، فإدبارها عنه أو إقبالها عليه .. لعنة تصيبه. كأن الشر يسير فى ركابها، وكأن القرون الوسطى كانت صادقة فى نعت حواء بابنة الشيطان!

يقول بيرون: "لقد شعرت دائماً، مثل نابليون، باحتقار عظيم للنساء. وكونت هذا الرأى فيهن، لا رأياً فطيرا

عاجلاً، بل عن تجاربى المقدورة. وحقيقة أن كتاباتى ترمى إلى إثارة هذا الجنس .. فمخيلتى كانت دائماً تعمل على وضع النساء موضع المثل الجميل الأعلى، لكننى فى هذا كالمصور، أرسمهن، لا كما هن، وإنما كما ينبغى أن يكن .. والنساء يعشن، فى بلادنا، فى مركز غير طبيعى .. بينما الأتراك خاصة، والشرقيون عامة، يتصرفون فى هذه الشؤون خيراً منا بكثير .. أعطوا المرأة مرآة وبعض الحلوى، فإنها ترضى خاطراً، وتقر عيناً"!

يعد البعض ليدى كارولين .. مثالاً للمرأة العاشقة المتفانية. التى تضحى بكل شىء ثمين، من بيت وأبناء وكرامة ومال .. فى سبيل من تحب. والبعض الآخر يراها امرأة مجنونة .. حقيقة لا مجازاً! أما الفريق الثالث، فيضعها ضمن النساء المنحلات فاقدات الكرامة! على أية حال، فإن كارولين لم تيأس أبداً .. مع كل مالاقت من صد وهجر وزراية، من أن يعيش بيرون وإياها .. قصة الغرام ثانية! ولذلك فهى تنتهز فرصة غيابه عن مسكنه يوماً، وتدخل حجرة مكتبه، وعلى غلاف أحد مؤلفاته تكتب: "اذكرنى"!

ولا يكاد بيرون عندما يعود يطالع الكلمة، حتى يشتاط غضباً. ويبدع على الفور قصيدة مشهورة، يقول فيها:

"اذكرى .. واذكرى .. حتى اليوم الذى تكون فيه الجحيم مثواك، وأن الندم والعار لن يتركاك. اذكرى .. واذكرى

جيداً أن زوجك أيضاً لن ينساك، فكلانا سوف يذكرك: خائنة له شيطانة لى"!

وظل بيرون يذكرها بالسوء، إلى آخر أيام حياته!

(٥)

بوهيمية الفنان مهما اشتعلت أو ارتفعت أو انحدرت، فهى محكومة بالحد الأدنى من الدين والأخلاق والتقاليد. فتكوين الفنان مهما ارتقى وبلغ من عبقرية .. لا يعطيه الحق فى أن يتجاوز جوهر الحق والفضيلة. والتحرر يستهدف بالدرجة الأولى، الارتقاء بالإنسان إلى قمة الإنسانية. حيث الاقتراب من نور السموات. أما التحرر الآخر صنو الرذيلة، فهو حيوانية طائشة وغريزة مبتذلة. وقد عرف بيرون للأسف هذين اللونين معاً. وقد جسم الثانى منهما فى أقبح صورة، شذوذاً حرمته الأديان السماوية والقوانين الأرضية معاً. وإن كانت البشرية قد عرفته مشروعاً، فى ماضيها السحيق. وهو الاتصال الجسدى بين الأخ وأخته.

إن الوهم الذى يصنع منه الفنان عالمه الخاص، ينحدر به .. إذا لم يفرق فى كل لحظة بين الواقع والخيال، أو بين حقه وواجبه .. إلى القاع. حيث تتساوى الأشياء المتناقضة. وكذلك فعل بيرون. فإن دنياه التى اختلطت فيها العناصر، جردته من التمييز بين ماهو خير وبين ماهو شر .. بزعم تميز الشاعر والفنان.

كما أن الهموم الكثيرة التى آذته منذ طفولته، وأثقلت أيامه الخضراء، من أقرب الناس إليه. أعطته المبرر ليتعامل مع العالم بنفس اللغة. خاصة وهو يدرك أنه بموهبته وتكوينه، يملك قدراً من الشجاعة .. لا تلجئه إلى الكذب والنفاق والمداراة. وهى أشياء قبيحة، يراها تنحط بالمرء مهما ارتفع لقبه أو جاهه أو ماله .. وتسود المجتمع كله بشكل وبائى. وإن الأسلوب الجبان الذى تحدث به الخطايا فى الظلام، تجعل من الجريمة جريمتين. بينما هو لا يقع إلا فى واحدة منهما! وتقوده قسوة المرأة عليه فى صغره، وخيانتها له فى كبره .. إلى الكفر بها. ولعل ذلك أكثر ماشجعه على الشذوذ، بعد أن انقطع الخيط النقى الحميم .. الذى يربطه بها. ولم يبق شىء فيها يدعوه إلى احترامها.

وإذ ألهبت هذه السياط جميعاً، فى نطاق العالم الخارجى ظهره. ودفعته دفعاً إلى خط النجاة الوحيد، الذى بقى له وهو نفسه. يحتمى بداخلها .. ويستعين بها على رد السهام. فقد بلور فى شخصه، بطريق مباشر وغير مباشر .. مايحمل من اطمئنان وحب ونقاء. خاصة أن الطبيعة منحته وسامة وجمالاً، مما عرضه لاتهام الكثيرين له بعشق الذات والنرجسية.

هذا التوحد داخل النفس، منحه حرية مطلقة داخل دنياه الخاصة. أقنعته أن من حقه، أن يفتح باب التجربة على سعته. ويتذوق كل مايقدر عليه، من متع تقليدية أو غير تقليدية .. ترضى عنها السماء أو لا ترضى! يقول إيفور إيفانز: "وكان فى برمه بالحياة ورغبته فى التحرر منها، يحاول البحث عن

أحاسيس جديدة ومشاعر مستحدثة. وهذا هو الذى يفسر إلى حد ماسفاحه مع أخته غير الشقيقة "أوجستا" إذ اعتبره تجربة في منطقة مجهولة من مناطق التهييج الحسى. وإنحرافه المرضى هذا جعله يدرك دائماً وجود عالم أرضى غير عالمه قائم على التمسك بالخلق، وقد ازدادت إحساساته عمقاً بفضل إدراكه لماهية الإثم وهو يقارفه عامداً متحدياً".

وهذه الحرية المطلقة استغلها بيرون، فى البطش بكل قيمة موروثة. بغض النظر عما يعود تمرده المتجاوز الحد، من سعادة حقيقية أو زائفة. وأن يصدم المجتمع فى صراعه معه. وسبب له مايشبه الهزّة الكهربائية، التى تزلزله حتى النخاع.

والموقف الصارخ لبيرون الذى يمكن مناقشته، يجعل تفسير سلوك الطرف الآخر من الثنائى الشاذ .. وهى أوجستا .. صعباً. ففى الظاهر لم يكن هناك دافع ملح وداع خطر، يسومها سوء المنطلق .. بحيث تتنكب طريقها. وبالذات وأوجستا أبعد الناس، عن الطيش والمغامرة. ومع ذلك هناك أشياء تقدم فى هذا المجال، مفسرة بعض مايتصل بالموضوع.

أولها إن الأخوين لم يعيشا معاً أو يتربيا فى بيت واحد. إذ عاشت أوجستا الشقيقة من الأب، فى بيت جدتها لأمها بعد وفاة الأخيرة. وهكذا لم يلتقيا فى الصغر، إلا مرة واحدة. ثم مرت السنون وهما غريبان عن بعضهما تماما، لا يعرف أحدهما شكل الآخر! وهكذا فعندما يلتقيان وهما ناضجان،

يغلب عليهما مشاعر الغرباء . .لا أحاسيس الأخوة الذين من نفس الدم واللحم!

وفى غفلة من الوعى، يتسلل الإعجاب الخالص "غير المقيد". بين المرأة الحسناء -زوجة وأم لثلاثة أبناء- وبين شاعر مشهور صاحب مغامرات نسائية. ويتأصل هذا المعنى فى نفسيهما، قبل أن يدركا خطره .. أو يفكرا فى إبعاده، وإحلال الأخوة موضعه. وساعد على ذلك اشتراكهما فى عدة صفات، إلى درجة وجد كل منهما نفسه فى شخص الثانى. يقول أحمد الصاوى محمد: "كانت لها سمة آل بيرون، وعادتهم الغريبة فى عدم النطق بحرف الراء (ر)، ومط الشفتين، إلى حد أن بيرون دهش، وتأثر، وارتاح إلى لقاء هذه الصورة الأخرى منه فى شخص امرأة جميلة. وكانت بينهما أيضاً بعض وجوه الشبه المعنوية. لها حياء بيرون، واستيحاشه. ولكليهما عادة ملازمة الصمت بين الناس، فما لبثا أن وجدا نفسيهما فجأة طليقين نحو بعضهما".

ولما كانت أوجستا بسيطة طيعة، تأخذ الأمور مأخذاً سهلاً. بجانب أن الوازع الدينى قبل كل شىء، كان هامشياً فى الأسرة .. رجالاً ونساء. فهى لم تستهول ماأقدمت عليه، فى الاستجابة إلى إغراء بيرون وسقطت معه فى الوحل.

ولأن الصراحة من سمات بيرون، والإفضاء بكل أشكاله من مزاياه. فقد أخذ بيرون يعبر بصورة أو بأخرى عن إثمه. يكتب إلى أحد أصدقائه: "الواقع أننى، فى هذه الآونة، أعالج

شيئاً جديداً تماماً، وأشد خطراً من كل مامر بى. يالشقائنا، إذ لا نستطيع، إزاء هؤلاء النساء، أن نعيش معهن ولا من دونهن"!

وفى البداية لم يصدق أحد، أن وراء الأخوين صلة آثمة. ولكن بيرون لا يلبث أن يؤكد ذلك بين الخاصة من أصدقائه. الذين مع انحلال بعضهم وفسادهم، يفزعون من انحداره البشع. ولا يكتفى الشاعر بهذا القدر من الإفضاء عن سقوطه. بل يتناوله فى عمل شعرى جديد، يتخذ مسرحه تركيا، هو "عرش أبيدوس". الذى تحب فيه زليخة أخاها سليما! ومن مناجيات البطلة قولها لشقيقها:

"سليم، ياأعز الأحباب .. خبرنى، أتكرهنى أم تخشانى؟ تعال، وضع رأسك على صدرى فأقبلك حتى الهدوء والمنام. أتظن أنى أحتمل فراقك، فأشطر قلبى نصفين؟ لو انتزعوك منى فقدت أنت حبيبتك، وفقدت أنا مرشدى، ولم تعرف الدنيا، ولن تعرف، اللحظة التى تشتت بين روحينا. وعندما يهبط عزرائيل بصولجانه المخيف ليفرق الأحباب، سيميتنا حتماً، ولكن ليتحد قلبانا فى التراب"!

وفى موضع آخر، يقول بيرون على لسان قابيل، مخاطباً أخته وحبيبته فى نفس الوقت: "جمالك وحبك وسرورى وحبى لك .. وكل مانحبه فى أولادنا ومايحبه كلانا فى الآخر، كل هذا لا نتيجة له فى جعل أولادنا يعبرون، مثلنا،

فى الألم والخطيئة سنين طويلة أو قصيرة، دائمة الألم، تتخللها لحظات قليلة من السرور، حتى الموت، ذلك المجهول"!

وأنجب الإثم بنتاً .. سماها بيرون .. ميدورا.

وكان يمكن أن يخفف من وقع الدنس، على المجتمع وعلى صاحبها .. توبة فاعلها واستشعاره الخزى. والتماس كرامة الإنسان حتى ساعة السقوط، باتخاذ فلسفة "إذا بليتم فاستتروا". ولكن بيرون لم يفعل. بل استمر فيه، وأكثر من ذلك جهر به .. غير مفرق بين شجاعة الرأى وجرأة التبجح. حتى أتخذ مثالاً على الإنسان المتشبث بخطئه أو خطيئته. يقول دكتور محمد غنيمى هلال:

"وقد يظل الرومانتيكى متمرداً متعالياً، لا يندم، ولا يريد توبة ولا تكفيراً لأخطائه، يتطلع إلى سعادة لا يظفر بها، ولكنه يحاول التخلص من ضيقه بإشهار حرب على المجتمع وتقاليده، وبالاحتفاظ بكبريائه تجاه الناس والأحداث. ولكنه كبرياء شيطانى. يشعر فيه المرء بحقد هدام، يدفع به إلى الاستهتار. فيعترف بجرائمه ونقائصه مستخفاً. ولا يطلب عفواً لا من الله ولا من الناس. لأن فى طلب العفو مذلة، ولأنه لم يصر إلى ماصار إليه إلا لفساد المجتمع. أو لأنه ضحية القدر. وأروع تصوير لذلك هو تصوير بيرون الذى وصف نفسه فى شخصيات أبطاله مثل قابيل ودون جوان ومانفريد ..".

(٦)

فى خضم معاناة بيرون فـى قصتـه مـع كـارولين، استشـعر الوحدة كأقسى ماتكون. ولم يجد تعاطفـاً أو فهمـاً لأحزانـه، بـلا ثرثـرة أو حذلقـة، إلا مـن اثنتـين .. ليـدى ملبـورن حمـاة كارولين وآن ايزابيل ميلبانك .. بنت أخ حماة كارولين! التـى جاءت من الريف فى زيارة للعاصمة، وهـى فتـاة غنيـة جـادة مثقفة .. تكتب الشعر متدينة. لا تميل إلى العبث .. تنأى عن تهتك المجتمع الراقى. مما جعلها تبدو جامدة بـاردة، ولم تكـن كذلك. وإنما هو التعقل وسط مجتمع متحرر سـار على حـل شعره.

وكان هذا النموذج الذى تمثل الفتـاة، غريبـاً علـى بـيرون. فهو لم يلتق من قبـل بواحـدة لهـا صرامتهـا فـى الحفـاظ علـى عفتها ومبادئها الأخلاقية. أى على النقيض من سلوك بـيرون نفسه! ومع ذلك وربما لذلك، فهو يرتاح إلى مجلسها وحديثها ومناقشاتها. ويشعر أنهـا النسـيم الملطـف لمـا يجـد مـن حـدة جموح كارولين. يكتب بيرون .. إننى لارغبـة لى مطلقـاً فـى زيادة التقرب من مـس ميلبـانك، فهـى أطيـب مـن أن تتصـل بملاك مطرود من السـماء .. وكنـت أوثرهـا حتمـا، لـو أنهـا كانت دون ذلك كمالا"!

لقد أبدت آن إعجابها ببيرون وشعره معاً، ومع ذلك ظلت علـى هدوئهـا واتزانهـا فـى الظـاهر. بينمـا انشـغلت بـه فـى وحدتها، وهى تأسى على حظه مع قريبتها. ومن الطريف أن

مبادئها الأخلاقية، هى التى وضعتها فى طريقه وقربتها منه. حتى وجدت نفسها مشغوفة به عاشقة له .. كاتمة ذلك بين جنبيها! فتدينها دفعها إلى أن تتطلع، إلى هداية الشاعر المتحرر ورده إلى حظيرة الإيمان! وأن يكون ذلك على يديها .. اعتماداً على حرارة قلبها!

ولكن هل يخرج الحب آن عن إهابها وطريقها الذى تتبعه؟ أبداً. إنها تعرف جيداً كيف تقيد عواطفها، ولا تسمح لها بالحركة إلا فى النطاق المتزن، الذى يليق بواحدة من صاحبات المبادئ. وحان انتهاء زيارتها للندن، من غير أن تتقدم خطوة .. فى هداية الفنان المتحرر، الذى تؤمن بنقائه الداخلى! وفى مذكراتها التى تكتبها لنفسها، تشيد ببيرون. مع أنها تنتمى إلى المعسكر الأخلاقى، الذي يدين انحلاله ويلعنه.

"لقلا كانت الأهواء رائدة منذ طفولته .. ومع ذلك فمنها مالا يتعارض ومبادئ الدين وهو فى السر صديق متحمس لجميع العواطف الإنسانية، لكنه يحاول إخفاء خيرة مافى خلقه تحت قناع من الكبرياء. وإذا ماتأفف أو نفر انقلب شريراً، يحقد أشد الحقد، ويحتقر أمر الاحتقار. وهو فى غاية الدماثة والتواضع مع الذين يقدر خلقهم. وقد يعترف لهم بأخطائه، نادماً".

أما بيرون فكان يذكرها بين أصحابه، بين الحين والحين، بعد أن سافرت .. مشيداً بأخلاقها الصارمة .. مبدياً إعجابه بها، وهو يتنقل من غرام إلى آخر! ولكن القدر لا يلبث أن

يفرض عليه، استدعائها إلى واقعه .. لتكون حلاً لأزمتيه .. بالزواج!

والزواج، لم يكن بعيداً عن فكر بيرون. لا من ناحية الحاجة إلى المرأة والحب والجنس .. فهذه أشياء حد متوفرة بلا زواج عند دون حوان. بل من ناحية استقرار حانب آخر من حياته، يتصل بتكوين أسرة وإنجاب طفل شرعي. ومن الغريب أن بطل المغامرات النسائية، لم يكن يربط بين الزواج والحب! فما أسهل العثور على الثاني، لأنه في متناول اليد في كل مكان. بينما الأول وهو يحتاج إلى مواصفات خاصة، لا يتوفر إلا في القليلات!

واختيار آن زوجة، أدهش كل أصدقاء بيرون بلا استثناء! فكل منهما على طرفي نقيض من الآخر. سواء بمقياس الجمال أو الأخلاق. فلاشك أن بيرون كان أكثر جمالاً من الفتاة، كما أن تحرر الشاعر المشهور .. يقابله تحفظ واضح عند آن. ينبع من تدين حقيقي، وليس مصطنعاً أو هامشياً.

وكان هناك باعث آخر لبيرون، على اختيار آن زوجة .. وهو مالها. فأبوها اللورد من كبار الأثرياء. والشاعر في حاجة ماسة إلى المال، بعد أن اقترض الكثير. بحيث أصبح ريع ضيعته، لا يفي بأرباح القروض. ولم يأنف بيرون من التفكير، في أن يستعين بثراء الزوجة المنتظرة .. في تسديد ديونه!

ومرتان لا واحـدة، تطلع فيهما بيرون إلى الاقتران بآن. الأولى إبان أزمته مع كارولين ابنة عمتها! وهو يحاول أن يفلت من متابعتها له وإلحاحها عليه، في استعادة الغرام القديم. ولوح باقتراح الزواج، ليسد الطريق نهائياً أمام أمل العاشقة في الرجوع إليه. ومن الطريف أن صاحبة الاقتراح والمشجعة عليه، كانت أم كارولين نفسها!

وعندما تبلور تفكير بيرون في الأمر، لم يجد مايناسب إلا في آن ميلبانك! وعندما قدم العرض على الفتاة، عن طريق حماة كارولين. كانت المفاجأة غير المنتظرة .. الرفض التام! ومع أن أحداً لم يعرف بشأن الحب الذى تكن الفتاة الكتوم لبيرون .. إلا أن الدهشة علت الجميع، وأولهم بيرون نفسه. إذ كانت آن أول فتاة ترفضه، فضلاً عن الزواج منه! وهو الذى كان مطمع أجمل الجميلات، لا في زواج، بل في علاقة حب حرة!

وبالرغم من أن بيرون صدم بالرفض، بمنطق دون جوان الذى تترامى عليه النساء، ولا يصعب عليه الوصول إلى أية واحدة! إلا أنه سرعان ماتناسى الموضوع، في انغماسه في حياته العاصفة!

وكأن آن ترتبط في ذهنه، بالبحث عن الخلاص. بعد أن يقع في الأزمات الكبيرة، ويصعب عليه الخروج منها والعثور بينه وبين نفسه .. على طوق نجاة. فهو يذكرها ويذكر الزواج منها مرة ثانية، بعد علاقته الآثمة بأوجستا. ومرة

أخرى يناقش نفسه ويناقشه أصحابه، فى جدوى مثل هذا الارتباط. بغض النظر عن نتيجة المسعى، وموافقة الفتاة أوعدم موافقتها على الزواج منه.

وكانت آن قد علمت بانحدار بيرون فى علاقته بأخته. ومع أنها أدانته، إلا أن تعلقها به الذى لا يزال راسخاً فى قلبها. خفف من غضبها عليه وتشويه صفحته. ولعلها لامت نفسها لأنها لم تأخذ بيده قبلاً، وبذلك تكون مشاركة بصورة غير مباشرة، فى الإثم الذى وصل إليه. فربما لو كانت قبلت عرضه الزواج، لأمكنها نجدته فى الوقت المناسب. ولعل ماتحمل له من حب قوى، كان أكبر مساعد فى الوصول به إلى بر الأمان .. وإنقاذه من بين براثن الشيطان!

وبذلك أصبحت آن مهيأة تماماً، لقبول ماكانت تعتذر عنه من قبل. وعندما عرض عليها الزواج، هذه المرة وافقت عن طيب خاطر!

(٧)

ويتم الزواج .. الذى حمل فى طياته، الأمل المتبقى لتغيير المسار. الذى جنح بصاحبه عن الطريق السوى، ليتيح لبيرون حياة طبيعية غير متوترة .. يهدأ فيها نفساً ويقر عيناً. وكانت آن بسعة عقلها وتدينها وحبها وثقافتها، على القيام بهذه المهمةالصعبة، لقادرة. وقدرت أن حبه لها أو حتى إعجابه بها، المنعكس فى اختيارها هى بالذات زوجة.

الأساس الأول الذى يعتمد عليه، في البلوغ ببيرون ومركبهما المشترك على السواء .. مرفأ السلامة.

وداخل البيت يبدو الإنسان على حقيقته .. بلا تزويق أو تنكر. ومع أن آن وجدت فى بيرون، بعض ماذهبت إليه زمان .. من طيب عنصر ورقة شمائل وصدق عاطفة. إلا أن ثورة بيرون وغضبه واعتداده بنفسه، كانت تعصف بهذا كله!

ولما كان الشاعر المشهور، يطلق لمزاجه العنان فى تهور شديد. فقد بدأت معاناة زوجته، منذ الأيام الأولى! وتتعرض لقسوته وسخريته، ويصارحها إنه لم يحبها يوماً. فلتتجرع غصص الإهانة، جزاء حبها له! ويقول لها بصريح العبارة: "آه لشد ماكنت مفتونة بخيالك. كيف يمكن لإمرأة فى مثل عقلك، أن تكوّن لذاتها وتسول لها نفسها، ذلك الأمل السخيفا فى إصلاحى. أنا؟ يكفى أن تكونى الآن زوجتى لأمقتك! لقد جاء حين من الدهر، أول مرة .. عندما تقدمت إليك، كنت فيه تستطيعين كل شىء. أما الآن .. فسوف ترين أنك تزوجت شيطاناً"!

يبرر دكتور عبد الرحمن بدوى، مزاج بيرون المتناقض بقوله: "ذلك أن روحه المتوثبة المجاهدة لا تستطيع أن تستمر فى جهادها العملى حتى النهاية، لأن سلاحه فيه غير سلاح أعدائه من البشر من ناحية، ومن ناحية أخرى، لأن روح النضال عنده ليست روح نضال فى مملكة الواقع، بل فى مملكة الفكر، ومثله إذا استيأس من الواقع، لاذ بنفسه. ومن هذا

اللواذ المستمر بالذات تولدت فى نفسه نزعة ذاتية هدامة للباطن، قد أحالته إلى أتون من اللهيب الوجدانى الذى يحرق نفسه، ويكتوى بنيران ذاته، مما أوجد فى نفسه دوامة مرضية، إن صح هذا التعبير، تمزق النفس بأحوالها المختلفة، مما من شأنه أن يجعل التناقض طابعاً أصيلاً فى تكوينها. ولهذا التناقض من الحدة مايجعل السيطرة على النفس مستحيلة. وتنظيم الوجدان فيما بينها وبين بعض عسيرا، لأنه لم تعد توجد بعد هذه السلطة المركزية التى تستطيع الهيمنة على كل هذه القوى المتضاربة".

ويذهب أعداء بيرون، إلى أن غضبه من زوجته .. باعثه اكتشافه أن المعاش الذى قرره أبوها لها .. أقل مما يصلح فى تسديد ديونه!

وتحاول الزوجة الصبورة، أن تتغاضى عن كثير من السيئات التى تجد فى معاملة بيرون. آملة أن تسوس غضبه وتهدئ من حدته، وتهيئ له مايشجع على أن يبدع. ولكن الشاعر العظيم لا يعبأ، ولا يلتقى بامرأته حتى فى منتصف الطريق. ويتجاهل أحاسيسها وهو يجهر بمغامراته النسائية. ولا يغير من أسلوبه، حتى بعد أن تحمل. ومع معاناتها وانعكاس ذلك على صحتها، وهى فى مسيس الحاجة فى حملها .. إلى الراحة والصحة والعطف والحب. لم تيأس من الغد ومن عون السماء لها فى محنتها. وهى تلد ابنة لبيرون. سماها على اسم أخته .. أوجستا!

ولكن هذا كله يتحطم .. عندما تعرف أن بيرون عاد إلى علاقته المحرمة مع أخته. إذ لا معنى لهذه العودة بعد زواجه، إلا أنه لم يعد ثمة فائدة فى إصلاحه. بعد أن أدار ظهره تماماً، لكل ماتمثل من قيم عاطفية وأخلاقية. وهو يقبل على إغراق نفسه حتى شعر رأسه، فى مستنقع الخطيئة التى لا تغتفر. وتترك المنزل وكلها حسرة وأسف وحزن، على مصير حبها وزواجها. وترجع إلى قصر أسرتها.

ومن الطريف أن بيرون بدل أن يعجب من ذاته، دهش لتصرفها! كأنها يجب أن تسكت على مباذله وآثامه إلى الأبد. وكأنها جماد وليست من دم ولحم ومشاعر وأعصاب، تشعر وتهتز وتتألم. وسواء كان صادقاً راغباً فى رجوعها أو غير صادق، فقد ذهب إليها متوسلاً أن تعود. ولكنها صممت على الطلاق. وإن كانت كريمة .. فلم تشر أبداً طوال حياتها إلى السبب الحقيقى وراء انفصالها. وأراد أن يتركها معلقة، ولكنها لم تمكنه. إذ لوحت له أنها ستضطر فى المحكمة، إلى أن تتكلم. وتتناول علاقته الآثمة بأوجستا. هذه العلاقة التى لم تكن معروفة إلا فى أضيق نطاق من الأصدقاء والمجتمع الصغير. فخاف وأطلق سراحها .. طلقها.

ويكتب بيرون مودعاً إياها فى قصيدة مؤثرة ..

"وداعاً .. وإذا كان للأبد، فليكن للأبد وداعاً. وإنك، وإن كنت جامدة، لا يرق منك الفؤاد، فإن قلبى لن يثور عليك.

"فإذا كنت لا تستطيعين تلاوته فى هذا الصدر، الذى طالما أسندت إليه رأسك، إذ تأخذك من النوم سنة، لن تعرفيها بعد الآن.

"إنى بلاريب قد اقترفت ذنوباً كثيرة، لكيما يجرحونى جرحاً أليماً، أفلم يختاروا لى غير الساعد الذى ضمنى ذلك الضم الحنون، فاشتد ورمانى؟

"ومع ذلك، هونا ما .. إن الحب قد يموت موتاً بطيئاً .. ولكن لا تظنى أن فى الإمكان انتزاع قلبين، فجأة، وبغلظة، أحدهما من الآخر.

"وداعاً. هكذا فرقت عنك، ومزقت أعز صلاتى. وهكذا هُجرت، وحرمت وأحرقت .. ولا موت بعد هذا الموت"!

وظل بيرون ينتقل من غرام إلى آخر .. منددا بالزواج والمتزوجين! ولكنه فى لحظات صفائه، يعود فيصحح آراءه .. "مامن سعادة حقة فى غير الزواج. فإذا أحب الناس بعضهم بعضاً إلى حد لا يستطيعون معه العيش مشطورين متفرقين .. كان الزواج لهم هو العروة الوحيدة الوثقى التى تكفل الهناء"!

ويتهلف وهو فى رحلته الثانية، سواء فى إيطاليا أو اليونان ..على الرجوع إلى وطنه. والعودة ثانية إلى زوجته وابنته .. ولكن القدر لا يمهله ..

أوسكار وايلد
بين الجمال والمرأة

(١)

بينما لم يكن للفتيات الإيرلنديات فى الربع الأول من القرن التاسع عشر من هوايات، إلا مايتصل غالبا بشئون المنزل .. كانت جان فرنسسكا ايلجى ابنة المحامى المشهور، تقبل على القراءة والثقافة والأدب. ثم تتجاوز هذا كله إلى ماهو فى عرف الكثيرين وقتذاك من الشذوذ المطلق .. وهو الاهتمام بالسياسة! ليس هذا فحسب بل وممارستها أيضاً! فى ذلك الوقت كان الكفاح الوطنى الأيرلندى ضد الاحتلال الإنجليزى فى أوجه. والتهب وجدان الشباب فتية وفتيات فى أتون نار الحرية. وأخذت جان تنشر مقالاتها السياسية الحماسية فى الصحف، وكذلك قصائدها الملتهبة تحت اسم مستعار هو أسبيرانزا .. ومعناه رجاء، فتشارك فى إلهاب الشبيبة. معمقة ماإستهدفت اليقظة الأيرلندية من بلورة الشخصية الأيرلندية المستقلة. ولذلك عدها الاستعمار الإنجليزى واحدة من كبار المحرضين الوطنيين ضده ومن أعدى خصومه، خاصة بعد حركة الاستيلاء المسلح على قلعة دبلن وإخراج الجنود البريطانيين منها! كما عرفت الفتاة أيضاً بالشجاعة، فحين

ألقت السلطات البريطانية القبض على صاحب جريدة "الأمة" واعتقلته ثم حاكمته لمقال كتبته جان وهو غفل من التوقيع، صاحت الفتاة فى القضاة مطالبة أن تحاكم هى .. لأنها هى صاحبة المقال!

وكانت الفتاة المثقفة الوطنية ذات الشخصية القوية .. محط أنظار الكثيرين من الجنس الآخر، لأسباب أخرى أيضاً. فهى جميلة تتميز بعينين زرقاوين وشعر أسود حالك، واستطاع طبيب العيون الشاب وليم وايلد الذى أحبها، أن يفوز بقلبها ويتزوجها. ولم يغير الزواج وإنجاب الأطفال، ولدين وبنتاً ماتت فى طفولتها .. شيئاً فى حياة جان. فظلت تتابع السياسة وتشارك فيها بالكتابة. ولم يكن بيتها بعيداً عن الحياة الاجتماعية المتشابكة كذلك .. إذ كان رجلها على صلة وثيقة بمشاهير عصره من المفكرين والعلماء والسياسيين.

ولا تلبث جان أن تكتشف بعد قليل أن زوجها طبيب الأسنان الشهير، صاحب المغامرات النسائية أيام العزوبة، لم يقطعها بعد الزواج، واستمر يتصل بنساء أخريات. وكأية زوجة عاقلة تغافلت جان عن ضعف زوجها إزاء المرأة. فقد كانت سعيدة ولا ينقصها شيء، كما تعرف أن وليم وايلد يحبها. ولكن الأمر اختلف عندما أغرم رجلها بالآنسة مارى ترافيرس وهى شاعرة ذات مزاج طموح، عرفت بجموح العاطفة وكثرة العشاق .. والتى بادلته هواه بأقوى منه. وأخذت تبثه أشواقها وحبها فى قصائد ملتهبة مشبوبة الأحاسيس. وعندما جمعت الشاعرة قصائدها الغرامية فى

ديوان صغير .. أرسلت نسخة منه هدية إلى زوجة من تحب!
ولا يدرى أحد أى شيطان دفعها إلى مافعلت!

وتملك جان الغضب لصفاقة الشاعرة المأفونة! وتكتب على الفور خطاباً شديد اللهجة لا إلى الفتاة، بل إلى والد الفتاة الدكتور ترافيرس تندد فيه بابنته متهمة إياها بالإنحلال وسوء الأدب! ولا يعبأ الأب بالخطاب ولعله كان يعجب بغراميات ابنته، لأنه لم يذكر لها شيئاً عن الرسالة. ولكن العاشقة رأتها مصادفة، وساءها ماجاء فيها. فهى ترى أن لها فى وليم وايلد ربما أكثر مالزوجته .. لأنه أحبها عليها وليس العكس! وقررت ألا تسكت على الإهانة التى لحقتها! وأقامت على جان دعوى قضائية تطالب فيها بمبلغ كبير تعويضاً عما لحقها من إهانات! وكانت فضيحة مدوية بالنسبة إلى .. طبيب الأسنان المشهور أولاً، أصابه منها أذى كبير. وبعد أن مرت العاصفة، عادت العلاقة بين الزوجين قوية كما كانت. وجان تقسم وقتها بين أعبائها العائلية، وبين كتاباتها التى اتجهت بعد قليل إلي مجال الفولكلور وأصدرت فيه عدة كتب.

هذه هى أم .. أوسكار وايلد .. ابنها الثانى، الذى سيصبح فى قابل الأيام أديباً عالمياً مشهوراً.

وقد ظل أوسكار وايلد يحمل لأمه كل حب وتقدير ويذكرها بكل خير. وعندما بلغه موتها وهو فى السجن، بكاها أحر البكاء، ويقول عنها فى كتابه "من الأعماق": "إن موتها كان رهيباً لى، ولكن مع أنى أمير اللغة، إلا أنى لا

أتمكن من أن أعبر بأية كلمة عن ألمى المبرح وخجلى المرير .. إنها هى وأبى أودعانى اسماً نبيلاً وشريفاً، ليس فى الأدب والفن وعلم الآثار والعلوم فقط، إنما فى تاريخ شعبى وبلدى وتطوره كأمة أيضاً".

أما الأب جراح العيون والأذن، فقد تابع منجزاته العلمية وطبقت شهرته الآفاق فى العالم. وعين طبيباً للملكة وأنعم عليه بلقب سير. وأصدر هو الآخر عدة كتب علمية وأدبية، ومات وابنه الأصغر فى الحادية والعشرين من عمره، طالباً فى جامعة أكسفورد.

(٢)

يبدو أن إنغماس الأم الشابة أكثر مما يجب بمقياس عصرها وغير عصرها أيضاً فى الحياة العامة وبالشكل الخشن وسط الرجال، كان له ثمنه .. دفعته وهى لا تشعر. لأنه وسمها بطابع الاسترجال، حتى كاد التطبع يغلب الطبع. وعلى عكس ذلك شكل ولعها بالبنات وأملها فى إنجاب بنت .. وإذ قاومت بصعوبة هذه العاطفة بعد ولادتها الأولى التى جاءت ذكراً، وارتقبت بصبر نافذ أن يخرج حلمها الثانى فتاة .. فلما لم يشأ القدر وجاء أوسكار. وأدركت أن الأمر خرج عن إرادتها، لم تستطع هذه المرة استسلاماً .. بل تمردا. وقررت ألا تقف مكتوفة اليد .. فإذا لم تلد الفتاة، ففى إمكانها بالطبع أن تضفى على الطفل بعض المظاهر الأنثوية، وأخذت تعامل أوسكار كطفلة! "شق على الوالدة أن يكون

ولدها الثانى ذكراً لا أنثى، فانتقمت لنفسها منه، بأن خلعت عليه حلل النساء، وأطلقت شعره رسلاً على كتفيه"!

ولقد ولّد هذا الأسلوب فى نفس الصغير على مدى سنوات آثاره المدمرة بعد ذلك. ومكن من إشاعة الظلال النسائية فى حياته، إنه منذ سن مبكرة يتذوق الجمال الذى عرفه فى بيته قبل أن يدرسه فى المدرسة أو الجامعة. وقد تأثر الفتى فى ذلك بأبويه معاً .. يقول عبد الرحمن صدقى "ورث عن أبيه استهتاره فى حب الجمال ونزوعه إلى الاستمتاع الحسى بالحياة. وهذه الحرية التى اعتادها الأطباء فى كلامهم عن العلاقات الطبيعية بين الرجال والنساء، كما ورث عن أمه روح الحماسة والاندفاع واستكراه العزلة والانزواء، وحب الظهور وطلب الاشتهار، وعدم الصبر على الحياة بعيداً عن مطارح الأنظار".

ويقول صاحب "التحدى عند أوسكار وايلد" عن البصمات التى تركها الوالدان على ابنهما .. ".. فأبصر النور وعلى كتفيه الصغيرتين عبءٌ من مثقلات الوراثة دفع به إلى مصيره المرعب، فقد كان أبوه خليعاً مطلق العنان لمجونه، وكانت أمه متزحلة مغرقة فى ترحلها، فاتفق الوالدان على تربية ولدهما تربية تمحو من نفسه أثر كل فضيلة، فطرية كانت أم مكتسبة"!

بعد دراسته المتوسطة، يلتحق أوسكار بكلية ترينيتى بجامعة دبلن، ثم ينتقل إلى إنجلترا ليدرس بأكسفورد، وهو أثناء

مراحل الدراسة .. طالبٌ مجدٌّ على الدوام. ويظهر اتجاهه الأدبى فى هذه المرحلة. ويكتب الشعر والمقالات الأدبية .. وأهم من هذا يؤمن بمبدأ "الفن للفن" فى الأدب والحياة على السواء. لذلك فهو يعتنى كثيراً بمظهره ويتأنق بشكل ملفت للنظر، إيماناً بأن المظهر ذو دلالة هامة على المخبر. ويذهب إلى أبعد من ذلك، وهو يعد "إصلاح الملبس أهم للمجتمع من إصلاح الدين"!! فلا عجب أن يقابل اشتطاطه بإثارة الزوبعة ضده! وفى ذلك يقول د. لويس عوض، عن زمرة وايلد التى أطلقت على نفسها "الهلينيين": "وسعوا إلى التجديد لا حباً فى التجديد وحده ولكن ليسخروا من البورجوازية المحافظة، فابتكروا الملابس الغريبة الزاهية والأدب الغريب الزاهى، ومزقوا التقاليد حيث يجدها الفكتوريون وأسرفوا. حيث اقتصدوا وانصرفوا إلى انتهاب لذات الحياة حيث تشددوا فى الفضيلة وهزؤا من نظرية التقدم وعرضوا بالعلم وقالوا بأن الفن طريق الخلاص".

يصور ميشيل عبد الأحد مواقف أوسكار وايلد فى ذلك الحين بقوله: "ولكنه بالرغم من هذا التفوق كان موضع سخرية ونقد من طلبة الكلية لإصراره على الظهور بمظهر الرجل المخنث واحتقاره للألعاب الرياضية العنيفة، وهى محك رجولة طلبة أكسفورد، وإرسال شعره كالنساء، واتخاذ لباساً غريباً، وتزيين غرفته بريش الطاووس وأزهار الزنبق والتحف الفنية، وطريقته الخاصة فى الحديث، فضلاً عن أنه تزعم حركة جديدة نادى بها ويسلر، كانت تهدف إلى دراسة الفن

للفن فحسب، دون نظر إلى القيم والغايات .. لكن البدعة انتشرت، وأصبح وايلد رسول حركة "فن الجمال" وقائدها .."!

ولاشك أن الخطأ الأساسى الذى وقع فيه وايلد مع اندفاع الشباب إلى آخر مدى وقلة التجربة، هو أنه لم يفرق بين تمرد الفنان وبين تحطيم كل الثوابت -أو التى تبدو كذلك- حقها وباطلها. إن الفنان الحقيقى هو إنسان متمرد ثائر فى المحل الأول لا يعترف بالأمر الواقع، يختلف فى التكوين عن الإنسان العادى. وأول مايصطدم به هو الجمود والمظهر الكاذب والعقلية المتحجرة. وهى أشياء كانت ذائعة فى عصر الملكة فيكتوريا، الذى عاشه أوسكار وايلد. ولذا كان هم الفتى أن يهاجم كل رموز هذا العصر، ومنها مدعو القيم ورافعو شعاراتها. ومن كلماته فى هذا الصدد، التى جاءت بعد ذلك فى روايته "شبح كانترفيل": "كم أبغض هذه المجردات الأخلاقية، وكم أبغض قسوتها على النفس! إنها لقسوة رخيصة"!

وفى دراسته الجامعية تتلمذ على فكر وولتر باتر الذى عرف بالحرص على القيمة الجمالية قبل كل شىء .. متحمساً فى كتبه كما يقول درينى خشبة للحضارة اليونانية تحمساً شديداً، مما كان له أثره العميق فى اتجاه وايلد اتجاهاً يونانياً حتى فى نواحى النقص اليونانى وشغف اليونانيين بجمال الأجسام، ولاسيما عشق الذكور لهذا السبب، مما ورثه عنهم العرب فى العصر العباسى حينما جهر شعراؤهم وعلى رأسهم النواسى الكبير بعيون شعرهم فى التشبيب بالغلمان المرد".

(٣)

وبعد التخرج يندمج أوسكار وايلد أكثر فى المجتمع ويقبل على ملذات الشباب بكل مافي وسعه، ويعب من مغامراته النسائية مااستطاع إلى ذلك سبيلاً. يشجعه على ذلك وسامته وشهرته الأدبية كرمز من رموز الموضة الجديدة "الفن لذات الفن". هذه التي كانت تعاش فى الحياة قبل أن تصور فناً أدبياً أو تشكيلياً، والتى أنتجت ماسمى بالشخص الجمالى الذى يبلور مفاهيم المذهب. ويتمثل فى فناننا كأحد فرسانه المشهورين، والتى جسدها فى كتاباته جيداً .. لأنه هو أصلاً يعيش فى حياته على منوالها.

ومن أمثلة الشخصية الجمالية التى فتن بها أديبنا الكبير ورسمها فى مسرحيته "زوج مثالى"، شخصية لورد جورنج، التى صورها بهذه الكلمات: "رجل حسن النشأة، لا ينم وجهه عن أى تعبير. وهو ماهر، غير أنه لا يحب أن يظن فيه كذلك. غندور لا مغمز فيه. يزعجه أن يظن أنه عاطفى من أصحاب الخيال. إنه يلهو بالحياة، وهو مع الدنيا على أتم وفاق. إنه مولع بأن يساء فهمه. فإن ذلك يجعله فى موقف يعود عليه بالنفع"!

ويقوم أوسكار وايلد برحلة أدبية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، يلقى فيها العديد من المحاضرات فى أكثر من مدينة لمدة عام. وكانت قد سبقته شهرته إليها، فاستقبل استقبالاً

حافلاً. ويعود إلى لندن ليتابع من جديد اهتماماته المختلفة وغرامياته.

وانشغاله بالمرأة لم يمنعه فى الآونة الأخيرة من التفكير فى الزواج! لا لأنه سئم التنقل بين النساء أو لأنه يريد أن يهدأ أو يستقر، أو يصبح رب بيت نموذجى .. فهذه أشياء لم تخطر بباله، فمن كانت حواء فى متناول يده بلا مسئولية أو تبعة .. لا يقدم إليها سوار الزواج لتقيده به وتربطه بها ربطاً أبدياً! وإنما هى حاجته الملحة إلى المال! فهو بالرغم من العائد السنوى المناسب الذى ورثه عن أبويه، إلا أن إسرافه وإنفاقه الكثير على أناقته الذى دفعه إلى الاستدانة، جعله مكبلاً بالديون دائماً. وكان الحل السعيد الذى ينقذه من ورطته .. زيجة غنية!

وقد تمهل طويلاً إلى أن التقى بكونستانس لويد .. التى وجد فيها بغيتيه .. الجمال والمال! وهو فى حاجة ماسة إليهما. وكانت الفتاة من أسرة مشهورة تفوق أسرته جاهاً ومكانة، ولذلك رفض أبوها طلبه! فهناك أكثر من عامل يكره الرجل فى أن يكون أوسكار وايلد زوج ابنته. الأول، عصرية الشاب الزائدة عن الحد، والتى هى من وجهة نظر الجيل السابق .. انحلالا، أو على الأقل تفاهة. فمن يصر أن يتمثل فى نفسه البطل الجمالى، ويضع فى عروة سترته زهرة الزنبق الكبيرة دائماً التى عرضته لسخرية الرسوم الكاريكاتيرية .. لهو إنسان سطحى! أما الباعث الثانى، فهو أن الأديب الشاب مع شهرته لا عمل له يتعيش منه .. فكيف إذن يتزوج؟ ومن

أين ينفق على عائلته؟ أما عائده السنوى والاعتماد على ماتدر الكتابة .. فهما لا يشكلان مورداً كافياً. كما أن القلم لا يعد في ذلك الوقت حتى في انجلترا، وسيلة للإعاشة .. فمكافأته لا تعرف الثبات أو الانتظام أو الاطراد. بعكس الوظيفة أو الأعمال الثابتة بوجه عام. بجانب أن حياة الصعلكة التى يعيشها الشاب لا تشجع على فتح بيت أو استقرار أسرة. ولكن الفتاة المغرمة بأوسكار أصرت وهددت .. حتى اضطر أبوها على الموافقة مكرهاً!

وماحسبه الأب وقع وعاشته الزوجة الشابة فى بيت أوسكار وايلد الأقرب إلى الفقر، رغم مظهره الخارجى. وارتضت أن تعانى من ذلك الكثير وهى تقاسى الحرمان. ويكفى أن شراء قبعة جديدة مثلاً، كان من الأحداث الخطيرة التى تحتاج إلى الإعداد لها طويلاً. ولم تستطع كونستانس أن تشكو .. فهى التى اختارت ورفضت نصح الأهل والأصدقاء، وفى هذه الأثناء أنجبت ولدين. كان حبها لأوسكار يخفف عنها الكثير من الألم، الذى تجد من الاختلاف الكبير بين السعة فى كل شىء مادياً ومعنوياً فى بيت أبيها، والضيق فى بيت زوجها. ولاشك أن تعضيدها لرجلها فى دعوته إلى تأصيل عنصر الجمال فى حياة الناس، شغلها قليلاً عن ضيقها المالى. يقول سلمان التكريتى فى كتابه "أوسكار وايلد" عن نشاط كونستانس فى هذا المجال .. "فساهمت زوجته فى التحمس للفكرة الجمالية إلى درجة الظهور على مسرح الحياة فى اجتماعات عامة لحث النسوة على إصلاح ملابسهن وهى

التى أرادت إبدال ملابس الدانتيل الضيقة المعاصرة المطرزة بالأثواب الضافية مما قبل المرحلة الرفائيلية، مثل زوجها الذى كان يغرق فى الأزياء الرجالية المضحكة المثيرة"!

وتستمر حالة الضنك المادى ببيتها مدة غير قصيرة، لا تتجاوز إلا بعد ثلاث سنوات. ومن الطريف أن يأتى الفرج من نقطة الضعف الأولى التى تؤخذ على أوسكار وايلد، وهى حبه للجمال ومايؤمن من فلسفة جمالية! فقد اختاره أحد أصحاب الصحف رئيساً لتحرير مجلة "عالم المرأة"! وقد أفاض عليه المرتب الثابت الخير الوفير! وبدأت فترة الاستقرار فى حياته. وتميز إنتاجه الأدبى فى هذه المرحلة بالنضج والرشاقة والدعابة.

والوجه الإنسانى الصادق الذى يواجه به وايلد مجتمعه .. هو نفسه الذى يعيش به داخل بيته. فهو مثال الأب الحنون المداعب لطفليه المدلل لهما. يكتب عنه بعد ذلك ابنه الأصغر فيفيان هولاند قائلاً: "إن أكبر ظاهرة بارزة فى شخصية أوسكار وايلد، إنما هى إنسانيته العظيمة المتمثلة فى حبه للحياة وحبه لأصدقائه وتعاطفه مع العذاب والألم. وقد كان أكثر الناس حباً وحناناً ورقة، كما كان يكره أن يرى إنساناً يتعذب. ولم يذكر أى من مؤرخى سيرة حياته، حتى فرانك هاريس افتراض أنه قام أو ساعد على عمل ردىء. وهناك قصص كثيرة رويت عن مساعداته للناس الحزانى حتى يوم كان يعانى من الفاقة والعوز".

(٤)

ويصدر أوسكار وايلد عدداً من الكتب بين القصة وديوان الشعر والمسرحية، تمتاز بالأصالة والسخرية اللاذعة .. تلقى نجاحاً كبيراً. وتعم شهرته الآفاق فى وطنه وخارجه، ويصبح أسلوبه الفنى مدرسة قائمة بذاتها. يقول الدكتور لويس عوض عنها: "ولقد تقسو سخريته بالأشياء حتى تحطم الأشياء ولكنها لا تبلغ أبداً مبلغ الثورة ذات البرنامج. وهو يستنبط النكتة آنا باستخدام المفارقات وآنا باستخدام النقائص، وآنا باستخدام مالا ينتظر، وآنا بالعبارة الطويلة المبلورة. والحدود بين الجد والهزل عنده غير واضحة، لأنه لم يكن مجرد كاتب ماجن عابث ولم يكن مصلحاً اجتماعياً عابس الوجه يحب الاستشهاد، بل كان بين بين. لهذا تقرأ أوسكار وايلد فتضحك، وبعد أن تفرغ من الضحك تتبين أن فكاهته تثير فيك أكثر من الضحك، تثير فيك التأمل وتدعوك إلى الشك فى سلامة الأوضاع الاجتماعية القائمة على التزمت الأخلاقى والفكرى".

وتنهم الزوجة بنجاحه الكبير مادياً وغير مادى .. وتكتمل سعادتها بزوجها الذى يحبها وولديها .. حتى تقع الواقعة فينهار كل شىء.

فكما أن بين العقل والجنون شعرة .. كذلك بين الحرية والفوضى شعرة. ويعيب الحماس الشديد أن يتجاوز صاحبه هذه الشعرة دون أن يشعر، فيسقط فى الهوة. وهذا ماحدث

لأوسكار وايلد. يقول خليل هنداوى عن أديبنا ".. ولعل أغرب جانب فيه "فنه" الذى يتجلى فى كل مايكتب، و"حياته الفنية" التى اتصلت بحياته الطبيعية، فكان من هذا الاتصال ذلك الاضطراب الذى يملأ حياته، وهدم الواقع وماخلف هذا الواقع من تقاليد اجتماعية اصطدم بها".

كان أوسكار وايلد يقول، كما كتب فى مسرحيته "مروحة ليدى وندرمير": "هناك لحظات يضطر المرء فيها اضطراراً إلى أن يختار أحد أمرين. إما أن يحيا حياته مفعمة، موفورة، كاملة غير منقوصة، وإما أن يجرر أغلال ذلك العيش الزائف الخاوى المهين، الذى تتطلبه الدنيا فى عرفها المنافق". ويكمل الملمح فى موضع آخر وهو مسرحيته "زوج مثالى"، بقوله: "أتظن حقاً ياآرثر أن الضعف هو الذى يستجيب للإغراء؟ أصارحك بأن هناك من الغوايات المفزعة ماتتطلب الاستجابة إليه قوة، أجل، قوة وشجاعة. أن يقامر الإنسان بحياته كلها فى لحظة واحدة، أن يقامر بكل شىء فى ضربة واحدة، سواء أكانت المغامرة فى سبيل السلطان أم المتعة لا يهمنى ذلك. فليس فى الأمر أى ضعف بل فيه شجاعة مفزعة هائلة".

فإيمانه بحرية الفنان التى لا تحد، وعقيدته فى فلسفة الجمال .. دفعاه إلى استملاح نفس الجنس واستساغة الشذوذ الجنسى، وكأنه يستجيب إلى نبض المجتمع المنحل .. "لا تدع أحداً يزج بك فى مجاهل الفضيلة. فإنك لو صلحت لأصبحت ثقيلاً مملاً"! أو قول شخصية أخرى فى مسرحية

"مروحة ليدى وندرمير" .. "وماعسانا فاعلين نحن الرجال بالطهر والبراءة فى هذه الدنيا؟ إن زهرة تحسن اختيارها لعروتك لأحدى عليك"!

ويقبض عليه ويحاكم بتهمة ممارسة الشذوذ، ويرفض أن ينكر .. ويقضى القاضى بحبسه سنتين. وبالرغم من أن الشذوذ الجنسى فى انجلترا كان معترفاً به فى السر وموصوماً ممنوعاً فى العلن، شأن المجتمعات الكاذبة المنافقة، بعكس اليوم الذى أصبح مباحاً فيها بقانون .. إلا أن ذلك لم يشفع لممارسيه الذين أوقعهم سوء الحظ فى قبضة العدالة التى تغمض عينيها وتفتحهما حسب الطلب .. فى تخفيف العقوبة، سواء من القضاء أو المجتمع. خاصة فى بلاد تعترف بالعرى ويعتمد نظامها الاجتماعى على العشيق والعشيقة. فقامت الحملات العشوائية النارية التى استمرت طويلاً، دفاعاً عن الشرف والفضيلة والحلال .. ضد الأديب الكبير. وبدت كأنها غضبة ملائكية مطهرة وليست غضبة بشرية ملوثة. وبلغ النفاق أن يكون من بين أشد المتحمسين المنددين .. أصحاب شذوذ. ولاشك أن أوسكار وايلد فوجئ بحجم وحدة العنف والكراهية والحقد الموجهة حتى من أقرب الأصدقاء.

ومن الطريف أن ماتعرض له كاتبنا فى محنته، من انقلاب المجتمع الذى ليس فوق مستوى الشبهات ضده .. سبق أن تناوله بالنسبة إلى قضية أخرى -استغلال موظف حكومى لسر من أسرار الدولة وبيعه إياه للأعداء بعد أن قبض الثمن-

فى إحدى مسـرحياته. وأغلب أفراد هـذا المجتمع يرتكبـون ببراعة فائقة وفى الظلام التام من الموبقات، مالا ينافسـهم فيـه إلا الشيطان. أما فى الظـاهر فهـم ضـد مايقـترفون، وينعتـون أصحابها الذين شاء حظهم العاثر أن يفتضـح أمرهـم ويمسـك بهم .. بأبشع الصفات. لأن ذلـك .. "يصـرف انتبـاه النـاس عن أسرارهم هم"!

ويلاقى أوسكار وايلد فى سجنه أبشع الآلام، لا من فقدان الحرية فحسـب، بـل مـن المعاملـة القاسـية اللاإنسـانية داخلـه. فالسجن الإنجليزى فى ذلك الوقت، كان تعذيباً وليس تهذيبـاً وإصلاحاً.

فأين كانت كونستانس من هذا كلـه؟ كـانت كونسـتانس تحب زوجها حباً قوياً لاريب فيـه .. وتؤمـن بفكـره ومذهبـه الفنى. وتعد نفسها شريكته فى هذا كله، وليس مجرد زوجة. ولذلك كانت صدمتها بما فعل كبيرة. أحست أنـه غـدر بهـا وطعنها فى مقتل وسلبها أعز ماتملك وهو حبها. وانتقص من قدر عطائها الوجدانى والجنسى، بل وشوهه وهو يظهـره غـير مشبع أو كاف. وبذلك داس على أنوثتها تمامـاً، ولم يبـق لهـا شيئاً كامرأة. وأغلب الظن أنها تذكرت ورددت بينهـا وبـين نفسها، ماكتب رحلها فى مسرحيته "زوج مثـالى": "الرجـال يمكنهم أن يحبوا مادونهم .. أشياء حقيرة دنسة مخلة بالشرف. أما نحن النساء فإننا نعبد حين نحب. وإذا فقدنا عبادتنا فقدنـا كل شيء .. أوه .. لا تقتل حبى لك .. لا تقتله"!

كما أن نفس المسرحية تعالج موقف الزوجة العاشقة لزوجها، التى تكتشف فيه أنه ليس بالأخلاق التى تصورت وأحبتها فيه. مما حطم كل آمالها، وهى تدرك أن حياتها قامت على أساس من الرمال. يدور الحوار بين ليدى تشيلترن وزوجها روبرت:

- لا تقترب منى. لا تلمسنى. أحس أنك دمغتنى بعار لا يمحى. أوه! أى قناع ذلك الذى كنت تلبسه كل هاتيك السنين. ياله من قناع مفزع.

- ..

- لكم كنت أعبدك. كنت عندى أرفع من سواد الناس، نقياً، نبيلاً، أميناً، مبرءاً من كل عيب. كانت الدنيا تزداد فى عينى جمالاً لأنك كنت فيها. كان الخير أكثر تحققاً لأنك تعيش. والآن. أوه، أيى آلام تنوشنى عندما أفكر أننى جعلت رجلا على شاكلتك مثلى الأعلى! المثل الأعلى لحياتى!

- وكانت تلك غلطتك. كان ذلك خطأك. الخطأ الذى ترتكبه النساء كافة. لماذا لا تستطعن أنتن النساء أن تحببننا كما نحن بصوابنا وأخطائنا؟ لماذا تضعننا على نصب شامخة شوهاء؟ إن لنا جميعاً أقداما من الطين، النساء والرجال على السواء.

وانساقت كونستانس فى غضبها .. واجتاحتها عوامل السخط عليه. لم تعثر له فى رأيها على مبرر واحد للخطأ .. ومن ثم لم تجد سبيلاً إلى العفو عنه. واتخذت منذ بداية

الحادث الموقف العدائى الصريح لزوجها، الذى لم يكن ينبثق عن مفهوم دينى أو أخلاقى .. بل عن غضب الأنثى لكرامتها. وأزعجها أكثر علنية القضية التى فضحتها ضمناً فى المجتمع. وكم تمنت لو فعل فعلته فى الخفاء وأبعدها عن العيون، كغيره من أصحاب عشق الجنس الواحد. لقد كان يستطيع أن يهرب من انجلترا منذ الفصل الأول من الفضيحة، كما نصحه أصدقاؤه .. ولكنه رفض أن يكون جباناً.

وقد هاجم كونستانس الكثيرون .. فمهما كانت الأسباب التى أثارتها ضد زوجها، فلا يعنى هذا أن لا تكون بجواره ساعة الشدة .. تخفف عنه وتحمل بعض عذابه. بل وتشاركه محنته حتى لو كانت تدين جريمته .. فلا تتركه وحده لمصيره. وكانت الزوجة قد هربت أثناء نظر القضية مع طفليها إلى فرنسا، بينما كان السجين المعذب فى أشد الأشواق وهو وراء القضبان إلى امرأته وابنيه .. يفكر فيهم ويأسى لهم ويحزنه أنه لا يعرف عن أخبارهم شيئاً.

وأول صدمة هزته جاءته مع أولى الرسائل التى وصلته .. حينما سمح له باستلام الخطابات بعد ثلاثة أشهر، كما يقضى نظام السجن. خطاب من صديقه شقيق زوجته، يفيد بشكل مابالتغير الذى طرأ على كونستانس والجفوة الكبيرة التى تحسها إزاءه. والتى لم يدرك أوسكار وايلد حجمها إلا بعد ذلك وهى تسعى للطلاق. وضاعف الخبر من محنته. لقد كان يتطلع إلى زوجته كمرفأ آمن، فإذا بها تخذله وتتركه وهو فى أمس الحاجة إليها. يكتب أديبنا فى إحدى مسرحياته عن

موقف مشابه، كأنمـا يستشعر قـدره القـادم: "ليـس الإنسـان الكامل هو الذى بحاجة إلى الحب، بل الإنسـان غـير الكـامل. لا شفاء لنا عندما نجرح بأيدينا أو بأيدى غيرنـا إلا بـالحب .. وإلا فمـا فـائدة الحـب؟ يجـب أن يغفـر الحـب الذنـوب جميعـاً ماعدا ضده منها. يجب أن يغفر الحب الصادق لكل الحيـوات مافيهـا، مـاعدا ماكـان منهـا خلـوا مـن الحـب. هكـذا حـب الرجل. إنه أرحب من حب المـرأة وأعظـم وأكـثر حظـاً مـن الإنسانية. يظن النساء أنهن يصنعـن مـن الرجـال مثـلاً. بيـد أنهن إنما يصنعن منا أصناماً زائفـة. لقـد صنعـت منى صنمـاً زائفـاً. ولم تكـن لى الشـجاعة التـى أنـزل بهـا مـن عليـائى وأطلعك على جراحى، وأظهرك على ضعفى. كنـت أخشـى من أننى قد أفقد حبك، كما فقدته الآن. ألا فليكـف النسـاء عـن أن يصنعـن مـن الرجـال مثـلاً. فليكففـن عـن أن يضعـن الرجال على مذابح ينحنين أمامها، وإلا فإنهن سيحطمن حياة رجال آخرين، تحطيماً مثلما فعلت أنت. أنـت التـى أحببتـك أعظم حب .. قد حطمت حياتى".

ومع هذا كله فقد كـان أوسـكار وايلـد يهفـو بكـل ذرة فـى كيانه، إلى أن تقف كونستانس إلى جـواره وألا تهجـره .. وهـو أبسط مايحض عليه الوفاء .. "ذلك هو الشىء الوحيد الذى يجب أن تفعله أية امرأة ..". ويقول وايلد فى موضع آخر .. "لم تخلق النساء للحكم، وإنما خلقن لالتماس المغفرة لنـا عندمـا نحتـاج إلى المغفـرة. وأعذرينـى إذا قلـت لـك إن رسـالتهن إنمـا هـى الصفـح وليس العقاب".

وعندما زارته لأول مرة فى السجن لتحدثه بشأن الانفصال النهائى بينهما .. هزها ماطراً عليه من ضنى وعذاب .. "لقد كان الأمر فظيعاً إلى درجة لم أكن أحمل عنه تلك الفكرة .. وأنا لم أتمكن من رؤيته ولمسه". وترددت فى الصفح عنه .. لكنها لم تلبث أن مضت فى سبيلها. وكانت زيارتها الثانية له وهو وراء القضبان، هى آخر مرة رأته فيها! فقد تم بعدها الطلاق. ولم تسمح له بلقائها بعد أن أمضى مدة العقوبة وأفرج عنه! وهذا على عكس ماتخيل أوسكار وايلد فى مسرحيته "زوج مثالى"، من صفح جرترود عن زوجها وعودتها إليه أكثر حباً .. فعلت كونستانس فى الواقع! وماأقرب الكلمات التى قالها روبرت تشنلتزن عن زوجته جيرترود، إلى الكلمات التى تحدث أوسكار وايلد عن كونستانس: "أحبها أكثر من أى شىء فى الدنيا. كنت أحسب أن الطموح أعظم الأشياء. إنه ليس كذلك. الحب هو أعظم مافى الوجود. ليس فى الدنيا غير الحب، وإنى لأحبها. لكنى مسلوب الشرف فى رأيها حقير فى عينيها. إن بيننا الآن هوة واسعة ..".

وتهاوت حياة أوسكار وايلد (٦ اكتوبر ١٨٥٦-٣٠ نوفمبر ١٩٠٠) بعد تمضية مدة العقوبة. وكان الطلاق وحكم المحكمة بألا يرى ولديه .. أنكى من أى شىء آخر. وكما كتب فى إحدى مسرحياته .. "يدفع المخطىء ثمن خطيئته، ويدفع ثانية، ويظل يدفع طوال عمره".

كاروزو
أعظم المغنّين فى العالم

(١)

ماكاد العامل الإيطالى مرسلينو كاروزو فى مدينة نابولى، يعلم أن امرأته حامل .. حتى لطم وجهه! وود لو شنق نفسه واستراح .. ولولا بقية من إيمان وخوف من السماء وعذاب الآخرة، لفعل! وكان الرجل معذوراً .. فقد ولدت له زوجته التى تعبد الإنجاب ثمانية عشرة ولداً وبنتاً واحدة! وبالرغم من أنه يقع على عاتق الزوجة العبء والغرم الأكبر، لا من ناحية الحمل وعمليات الولادة فحسب .. بل فى المشاركة فى تحمل نفقات المنزل الكبيرة، والعمل كغاسلة ثياب بالمنازل .. إلا أنها كانت شديدة الترحيب بالمزيد من الأطفال! وإن كان هذا العشق يورث زوجها الجنون، الذى يقاومه باحتساء الخمر لعله ينسى!

ويظهر بعد وقت قليل اختلاف الطفل الجديد أنريكو اختلافاً بيناً عن إخوته وعن غيره من الصغار. فهو يتميز بصوت رقيق لا تخطئ الأذن عذوبته منذ اللحظة الأولى. وشبه صياحه فى مهده "برنين الأجراس الفضية"! وقد عادت عليه هذه الميزة أو ماوهبته الطبيعة به منذ طفولته بالخير والبركة. فلا يكاد يشب ويبلغ السادسة من العمر ويحفظ

عدة ألحان أو أغـان، حتـى يستغل عشـاق الحـى موهبتـه فـى خدمتهم. وهـم يطلبون إليه أن يغنى لحبيباتهم تحـت نوافذهـن وشرفات منازلهن كلمات الحـب والهيـام .. لقـاء بعـض المـال يأخذه مبتهجاً ويسرع به إلى أمه يفك ضائقة!

وتقوم بعد قليل مشكلة بين الوالدين حول مستقبل الصغير .. الأب العامل الذى يقف أمام الأفـران فـى مصنـع الصلـب، والذى لا يفهم لقمة العيش إلا أنها كدح وعرق وجهد شـاق .. يريد أن يحذو ابنه حـذوه، ويعمـل معـه فـى المصنـع! والأم التى تطمع لأبنها فى مستقبل مغاير تمامـاً .. أن يكـون مغنيـاً! وهو اختيار غير مسئولة عنه لم تفكر فيـه أبـداً وربمـا لا تقتنـع به، ولكن لأن الصغير هو الذى يحلم به، فهى تقف فى صفـه. إن أنريكو الرقيق يفزع من مجـرد تصـوره واقفـاً أمـام الأفـران شديدة الحرارة، وكل أمنياته أن يتعلم الغناء. تقـف أمـه معـه تدافع عنه، تحاول أن تقنع زوجها أن يتيح للغلام هذه الفرصـة الذهبية. وإن كانت تدرك فى قرارة نفسها، أن واقـع الأسـرة يفرض على كل فرد فيها أن يبحث عن عمل، يسـاهم بـأجره فى التخفيـف عـن بشـاعة الفقـر الـذى يعيشـون فيـه. فـأجر زوجهـا ومـاتحصل عليـه هـى مـن غسيل الثيـاب، لا يتيحـان الحصول على الحد الأدنـى مـن الضروريـات أو مـلء البطـون. ويكفى أنها منذ وقت طويل وهى تمشى حافية حتى فـى الـبرد الشديد، لأن شراء حذاء نصف عمر .. يعـد ترفـاً لا قبـل لهـم به.

وتوسعت دائرة الإعجاب بصوت الصغير العذب، وهو ينشد تراتيل الكنيسة فى أيام الآحاد .. أو يشارك بالغناء فى الحفلات الخيرية بعد أن فعل فى نطاق ضيق فى حفلات الأهل والأقارب. ويقابل دائماً بالتصفيق والإعجاب. وبينما أنريكو وأمه بالذات يحلمان بالغد السعيد عندما يصبح الشاب مغنى نابولى الأول إن لم يكن إيطاليا كلها، كانت آثار الفقر تنفذ إلى العظام وتتكتل لتضرب ضربتها. والأم غير منتبهة إلى أن للطاقة حدود، وأن العمل المتصل الشاق ليلاً ونهاراً في البيت وخارجه، مع قلة المأكل والملبس ومع تقدم العمر أيضاً، يؤدى إلى الانهيار. وقد حدث وسقطت مريضة، وعجل الالتهاب الرئوى الحاد بموتها.

أذهلت الوفاة الصبى .. ولم يظن مع التغير السريع الذى طرأ على أمه أنها يمكن أن تموت. فهو يراها طوال حياته تكد وتكدح مع الفقر والبؤس والمرض بلا هوادة .. مهزولة معروقة .. ومع ذلك تحيى. فما الجديد الذى جد حتى تسقط السقطة الأخيرة التي لا قيام بعدها. ولولا أنها غيبت تحت الثرى أمام عينيه، لما صدق أنه الفراق النهائي بينهما. وانفض الناس بعد الدفن وأخذت الأسرة هى الأخرى تبارح المكان. وهو جاث على القبر لا يريم. سمع أخته تناديه وتحثه على الإسراع، ولكنه لم يستطع القيام .. فقد ثبت فى الأرض. كانت روحه وقواه واهتماماته مثبتة على مايضم جدث أمه، وهو يناجيها باكياً فى صمته بأعذب الألحان منقطعاً عن العالم كله. ولا تلبث النغمة الداخلية أن تتصاعد من حنجرته إلى

الخارج، وهو مشدوه لا يشعر بها .. حزين ذاهل عن نفسه .. يغنى بذوب أحزانه وآلامه نغمات باكية ملتاعة. وفى أول الأمر تشده أخته لما يفعل أنريكو من غريب الفعل، الذى لم تجر به العادة أبداً. وقبل أن تحاول أيقافه، تمسك يدها ولسانها وغناؤه يعلو .. كأن الطبيعة ذاتها هى التى توكله بهذه المهمة. وعندما انتهى وقف بلا حراك لا يحس بمن حوله .. فتقوده الفتاة وهو مستسلم ليدها.

والحياة التى لا تعبأ بأحزان وأفراح البشر، ولا تتوقف عن المسير .. لم تأبه لآلام الصغير التى تزايدت ولم تنقص، وهو يواجه همومه وحده. فلم يمد له أحد يداً فى محنته .. حتى أخوته فكل مشغول فى نفسه. وبإحساس مبهم استشعر أنريكو أنه مقبل على أيام سوداء، وأنه فقد النصير الذى كان يحبه كثيراً وهى أمه، يفتح الأبواب على سعتها لأشجان أكبر. وبالفعل يجد جديد فى الأسرة بعد أيام قليلة، يتصدر الاهتمام الأول .. حتى بدا هول موت أمه فى المحل الثانى أو الثالث. يتزوج الأب فجأة مرة أخرى، وتشغل امرأة ثانية مكان أمهم. وكان وقع الحادث كبيراً على مشاعرهم، سواء أصحاب التكوين العاطفى من الأبناء أو البارد. ولحسن الحظ يتكشف بعد قليل أن امرأة الأب طيبة وذات قلب عطوف. فوجد منها الأبناء رعاية حقيقية .. خففت عنهم كثيراً مجيئ "أم" أخرى، وإن أكدت أن الحياة أكثر من قاسية.

(٢)

والهدوء النفسى الذى ران على الأبناء، بعد اطمئنانهم إلى طيبة امرأة الأب .. إن حمل بعض السكينة إلى أنريكو، فهو لم يجعله يتخلص تماماً من مخاوفه لاتجاه السيدة بالنسبة لمستقبله. ولعل هذه الناحية هى التى كانت تعذبه مع مرارة الفقد. فهو يعرف رأى والده فى هوايته للغناء .. وكانت أمه التى تدافع عنه كى تسد كل المنافذ، قد أبدت استعدادها للإنفاق على تعليمه الغناء حتى يتخرج، ولن تكون هذه مسئولية أحد غيرها. وإزاء ذلك وافق الأب .. ولكن هل يظل هذا الإنفاق قائماً بعد وفاة الأم؟ انتابه شك هائل. ولم يلاحظ الفتى الفزع من مصنع الأفران، إن الاتفاق سقط بالفعل، فحتى إذا حافظ الأب عليه .. فمن أين يأتى الإنفاق على التعليم وقد ذهبت المسئولة عنه القادرة عليه؟

ولم يطل الانتظار .. فى صباح أحد الأيام، طلب الأب من أنريكو أن يستعد للذهاب معه إلى المصنع. وسقط قلب الفتى وهو يحاول أن يعترض، ويذكر الأب وهو فى حالة من اليأس المرير، بالاتفاق أو الوعد القديم. ولكن مرسلينو الذى يكره سيرة الغناء وبطالة ابنه بزعم حبه للغناء، هب فيه وصب عليه غيظه المكبوت شاتماً موبخاً إياه. ساخراً من الغناء والمغنين، ومن الشاب الرخو الذى لا قبل له بالعمل الشاق عمل الرجال .. ويلجأ إلى امتهان عمل رخيص فاضح! وتشارك امرأة الأب فى الهجوم حانقة هى الأخرى على الفتى .. ألم يكن الأولى به

وقد أصبح أطول من أبيه قامة، أن يخجل من نفسه ويبادر من زمان إلى مشاركته العمل، أم يفضل أن يعوله الآخرون، وغيره وأقل من سنه يعمل منذ أعوام. ويطأطئ أنريكو راسه ودمعة تفلت منه برغمه، ويذهب مستسلماً إلى المصنع .. كأنه مساق إلى المشنقة!

وبالرغم من أن العمل أمام الأفران الذى لم يعتده كان قاسياً ولطخه بالسواد ولفحته نيرانه، إلا أن ذلك كله لم يؤلمه بقدر ماآلمه بعده عن الأنغام والألحان. إن عالم الفن هو حياته، فهل يستطيع أن يستغنى عن روحه. شغل التساؤل باله طوال ساعات يومه، ويضغط أكثر بعد انقضاء العمل. ويستجمع قواه مدركاً أن عليه وحده أولاً أن يبذل غاية الجهد بدل أن يذرف الدموع على نفسه. ويحاول أن يخرج من أزمته التى أحس أنها لو استمرت بهذا الشكل لقضت عليه وعلى صحته. ويقرر أن يستمر فى التدريب على الغناء وقت الفراغ، معتمداً على نفسه. ومع أنه يفعل إلا أنه يواصل مرانه بأعصاب تالفة وروح خائرة ونفس قانطة. وفى أحد الأيام بينما يستعد لأداء تمرين، فوجئ باحتباس صوته!

لو قيل له أن السماء تنطبق على الأرض، وأن الهول الأكبر يزحف، وأنه معرض للموت فى التو واللحظة .. لما وجف قلبه بهذه الدرجة التى كادت تجعله يكف عن الخفقان. إنه يفقد أثمن مايملك والذى يجعل لحياته قيمة ومعنى. ويحاول أن يغنى، فتخرج الألفاظ مبحوحة مشروخة مشوهة تزيق. وكلما يفشل يتملكه فزع أكبر حتى كاد يفقد عقله. ويفكر

جدياً فى الانتحار، لقد انتهى فعلام الإبقاء على الحياة؟ ويعمل إخوته على التخفيف عنه، فيخفقون. ثم يترك الفتى لشأنه .. فهموم الفقر ومشاكله التى تحيط بهم لا تسمح لهم بترف التعاطف الزائد، خاصة بالنسبة إلى شقيق رقيق أكثر من اللازم .. لا يدرك صعوبة الحياة. ويتخيل أن غناءه أو عدمه .. مسألة حياة أو موت! ويذهب أنريكو إلى المصنع ويعود أكثر صمتاً، فإذا اضطر إلى الحديث فكلمات معدودة خافتة غير واضحة. وقد أصبح يبتعد عن المجتمعات وأصدقائه القدامى، خوفاً من أن يتعرض صوته المبحوح للسخرية الهازئة أو العطف الرخيص. مفضلاً الوحدة وارتياد الشوارع الهادئة فى آخر النهار، لا يفكر فى شىء .. كأن العدم مسخ الكائنات جميعاً.

وبينما هو سائر يوماً فى أحد هذه الطرقات يركبه الهم وتسحقه الأحزان يكاد لا يحس بما حوله .. بلا هدف، ولا يلوى على شىء .. إذ بيد تحط على كتفه، فيلتفت خلفه مذعوراً، ليجد أستاذه مغنى الأوبرا مسيانو الذى كان يشجعه ويقدره، يسأله ملهوفاً عن سر غيابه هذا الوقت الطويل. وتجيب الدمعة أولاً .. فقد انبعث الماضى الذى ظن أنه نسى إلى الأبد، وأفضى لأستاذه بما أصابه فى صوته. ويخبره الرجل أن الأمر أبسط كثيراً مما يتصور، وأنه لا يمثل خطورة على الإطلاق. فإن الصوت لا يختفى إلى الأبد بمثل هذا الشكل، وتكوين البنية الشابة لقادرة على التخلص سريعاً من الإصابة

المؤقتة، وهو على استعداد لمساعدته فى التو واللحظة والتخلص مما يشكو.

ويأخذه إلى بيته، ويجرى له عدة تمرينات مختلفة فى التدريب الصوتى، وهو يعمل من ناحية أخرى على تهدئته وإزالة الرعب المتمكن فى أعماقه وإشاعة الأمل فى نفسه. ويطلب إليه أن يستجمع بلا وهن كل قواه فيما يمضى فيه من تمرين، فعلى قدر الجهد والعرق تأتى النتائج. فالنجاح لا يستجيب لأول طرقة، والصوت الشارد لا يستحضر بأول نداء. ومع اطمئنان كاروزو إلى أستاذه فالهلع لم يتركه وفقدان الأمل يحاصره .. مما جعل المحاولات تفشل. ظل الفنان الصغير يصدر أصواتاً مبهمة غير منطلقة ومتعثرة مبعثرة. ويفهم الأستاذ العلة .. فلا يعود يترفق به بل يقسو عليه ويغلظ له. ويتألم الفتى ويأسى على نفسه وهو يظن أن قسوة الرجل الطارئة دليل على أنه هو الآخر لم يجد يحبه أو يعبأ به. ويفزع أنريكو بلا شعور مايتطلب التمرين من قوة ومضاء .. ورويداً رويداً ينفذ الصوت من خلال السدود التى تعوق ظهوره .. رائقاً واضحاً قوياً كما كان! لقد وقعت المعجزة .. ويتعانق التلميذ وأستاذه سعيدين!

(٣)

أقبل أنريكو كاروزو على العمل فى المصنع، كما لم يفعل من قبل. فعودة صوته إليه كان بمثابة بعثه من جديد الذى رد إليه الروح ثانية .. والذى كشف له عن القيمة العظيمة

لما وهبت له الأقدار. فهو يدرك اليوم أن لا تنافر بين العمل اليدوى وهوايته الفنية، مادامت الظروف أو فقره لا يتيح له أن يتفرغ للغناء. وتفهمه لذلك يسر عليه نظرته إلى واقعه والعمل فى أفران الصهر .. فكل شىء يهون مادام يملك أن يغنى!

وآن لأستاذه مسيانو أن يغادره، وهو يترك نابولى ليعمل خارجها. وقبل أن يرحل يصحبه إلى أستاذ غناء مشهور آخر أكثر شهرة وعلواً هو فرجين، ليتتلمذ عليه كاروزو من بعده .. الذى ماكاد يسمعه حتى قال له بجفاء: إن صوتك ياولدى أشبه بالريح التى تدخل من النافذة وهى تصفر! ويصعق الشاب الذى دخل مبتهجاً، وكله أمل فى أن يتقدم خطوات أخرى فى سبيل النضج يرفعه إلى سابع سماء. خاصة بعد أن تنبأ له مسيانو أنه سيصبح أعظم مغن فى العالم .. وإذا بفرجين يهبط به إلى سابع أرض! ولا يبقى للزائرين مايفعلانه فيتركان المكان على الفور، بعد أن انتهت مهمتهما بالفشل الذريع!

خرج كاروزو إلى الطريق وهو فى أشد حالات الضيق، فالصدمة التى أصابته عنيفة ومفاجئة وجاءت فى وقت غير ملائم، وهو متألم لسفر أستاذه وصديقه، وبعد أن ودع مسيانو، ظل سائراً بلا هدف ودمه يغلى. ومع ذلك لم يتطرق إليه اليأس وكلمات فرجين يتردد صداها فى أعماقه، فهى وإن آلمته، فهو ليس مقتنعاً بها ولا يتخذها فصل الخطاب فى مصير موهبته. وفكر فى أن يرجع إلى الرجل ويناقشه فيما

قال، ولكنه تراجع. إن معلم الموسيقى حر فـى رأيـه بـالطبع. ومع ذلك تظل فكـرة العـودة إلى فرحـين بـالرغم مـن السـاعة المتأخرة من الليل مستحوذة عليه بشكل مسيطر! ولكن لهـدف آخر! فليكن رأى الأستاذ فى صوته مايكن .. إنه يريد منه أن يعلمه الغناء فحسب، وليدع للأقدار أمر موهبته .. إن كـانت ثمينة أم تافهة!

ولا يدهش فرجين لعودة الشاب ثانية، فهو قد اعتـاد علـى زيارات الفنانين ومدعى الفن فى غـير الأوقـات الملائمـة. ولا يمنعه ذلك من أن يسأله بجفـاء وسـخرية عـن سـبب تشـريفه. ويحـاول كـاروزو أن يخـرج مـن اضطرابـه، ويجيـب متوسـلاً: الرغبة فى أن يعلمه الغناء. ويكون الجواب الجاهز: ألم تسـمع ماقلت من قبل .. أكـرر مـرة أخـرى إن صوتـك لا يعجبنـى. فكيف أعلمك الغناء وأنا غير مقتنع بما تخرج حنجرتك! ويلـح الشاب ويستعطف، فمستقبله كما تخيل مرهون بالتلمذة علـى من يبحر به فى محيط الغناء ويوقفه على الأغوار العميقـة فيـه. وإذا لم يفعل، فقد يظل مقيمـاً عنـد السـفح لا يـتزحزح! ولّمـا كان معلم الغنـاء يحـب المـال حبـاً جمـاً واستشـف مـن مظهـر كاروزو وعنايته بهندامه، أنه على شيء من الثراء .. فيجدهـا فرصة سانحة ليكسب بعض المال منه، حتى لو لم يكـن بـالفعل صاحب موهبة حقيقية! ويلوح له بالعرض .. فإذا كـان يملـك ثمـن الـدروس الغاليـة، فلعلـه يسـتطيع أن يدبـر لـه عـدداً مـن الحصص .. يقاطعه الشاب قبل أن يتم عبارته! إنه فقير وحالـه عدم .. مجرد عامل صغير، ينفق أجره علـى الأسـرة. وهـو لا

يريد درساً خاصاً، فلا قدرة له على تكاليفه. وإنما يكفيه أن يحسن إليه الأستاذ ويضمه إلى الفصل العام الذى يشرف عليه. وينفجر غضب فوجين الذى طلع نقبه على شونة! ماذا يظنه هذا المعتوه؟ مؤسسة خيرية مجانية مفتوحة الأبواب لكل من هب ودب من الأدعياء؟ أم أن وقته لا قيمة له بحيث يوزعه بلا مقابل على السفهاء؟!

ومع غضب الرجل، فلم يفته إخلاص كاروزو وحماسه الصادق لهوايته الفنية. إن فرجين برغم ضعفه للمال .. فهو يعشق الفن أيضاً بنفس النسبة! وقد هزه موقف أنريكو الذى يحمل كل هذا الحب للغناء، وكم يتمنى لو يبلغ تلاميذه جميعاً مبلغه فى الاستزادة من التعليم والإعداد الجاد الشاق للمستقبل. ولعل هذا مادفعه إلى التخفيف من غلظته فى الحديث إليه، وإن لم يفعل المثل بالنسبة إلى حقوقه المالية إزاءه! فكر .. إن الفتى فقير وجيوبه خاوية، وبينه وبين المال ود مفقود! فهو مايكاد يستلم مرتبه حتى يسلمه بالكامل إلى امرأة أبيه! هذا صحيح اليوم .. ولكن فى الغد من يدرى؟ لننتظر الغد إذن، فإذا أصاب الشاب مجداً وشهرة ومالاً، فيستطيع فرجين أن يحصل على أجره المتأخر طويلاً! أما إذا وقع العكس، فهو لن يخسر شيئاً كثيراً! وهكذا بروح شيلوك اليهودى استكتب معلم الموسيقى هاوى الغناء كاروزو اتفاقاً .. يدفع الثانى بمقتضاه فى المستقبل البعيد الذى لا يعلمه إلا الله، خمسة وعشرين فى المائة من دخله المرتقب نظير تعليمه!

وأسرع الفتى بالتوقيع وهو فى منتهى السعادة! لم يتوقف لحظة واحدة عند الشرط العجيب المستغل!

ويقبل الشاب على دروسه الموسيقية بنشاط كبير وحماس شديد، فهو يعرف أنه مهما بلغت به موهبته فلا يمكن أن يعتمد عليها وحدها في تقديم فن أصيل، بل لابد من الدراسة المتعمقة لهذا الفن أيضاً، التى تؤهله ليكون مغنياً جيداً. وبدا واضحاً أن أنريكو يتقدم بخطى حثيثة ويستفيد مما يلقى إليه ويبز أقرانه ويتفوق على زملاء الدرس. وكان أول من التفت إلى دبيب التقدم قبل أن يكون شيئاً ملموساً هو فرجين نفسه. وكأنما فوجئ الرجل بما طرأ ولم يكن ينتظره، ومع ذلك كانت فرحته لتقدم الفنان الشاب أكبر من ضيقه وإخفاقه فى اكتشاف موهبته منذ البداية. ولم يعد كاروزو كما وصفه فى أول الأمر .. الصوت الضئيل الغلبان الذى أقصى مايصل إليه، أن يكون "مغنياً متواضعاً فى بلدة صغيرة"، بل شيئاً مميزاً!

في هذه الفترة من حياته، بدا إقبال كاروزو على المرأة عادياً، بحيث يخلو من الحب العنيف الذى يعرفه بعد ذلك. فهو مشغول بمستقبله الفنى انشغالاً كبيراً، يسد عليه أى اهتمام آخر، فالفن كما يدرك يتطلب الإنسان الجاد فى درسه وتحصيله وتمرينه لتفجر موهبته فى أبهى صورة. وهكذا استحوذ فى هذه الفترة على الجانب الأكبر من أشواقه العاطفية، بحيث لم يترك للغرام إلا الهامش والاكتفاء بأيسر العلاقات، التى تمر مروراً سريعاً على القلب والفكر والجسد أيضاً! وفى بعض الأحيان تهفو نفس كاروزو إلى الحب

الحقيقى، الذى لا تعوضه أبداً المغامرات السريعة. وكان يتاح له أن يلتقى بمن هى أجدر بهواه، ولكنه يسارع إلى وأد هذه المشاعر قبل أن تستفحل وتسيطر عليه ويضطر آسفاً إلى قطعها. وباعث آخر كان يخشاه الفنان الشاب من تقوية صلته بفتاة مناسبة، وهو أن تسوق مثل هذه الصلة إلى التفكير من جانب الفتاة أو من جانبه هو إلى الزواج! وهو أمر لم يكن على استعداد له مالياً أو اجتماعياً، لانغماسه فى تأمين مستقبله. ولكى يضمن كاروزو عدم الوقوع فى الحب وتحمل مسئوليته، ابتعد عن فتيات الأسر .. متجهاً إلى اللاتى لا يمتنعن عن العبث وهن الراقصات والفنانات ومن تسلك مسلكهن!

(٤)

وبالرغم من إقبال كاروزو الزائد على دروسه، إلا أنه يتوقف يوماً عنها مع شديد أسفه مرغماً .. والسبب طلبه للتجنيد. وييتئس وهو يشاهد انهيار أحلامه، فإن معنى تأديته للخدمة العسكرية .. ابتعاده ثلاث سنوات كاملة عن التدريب، مجمداً مرانه ملقياً الصدأ على موهبته. وسط مناخ هو أبعد الأشياء عن الغناء والموسيقى، لأنه لا يعرف إلا الضبط والربط. ومع ماتوقعه أنريكو، فلا مكان فى العسكرية لخرم إبرة من تفهم الفن أو الألحان. ووطن الشاب نفسه على أن يعيش ثلاثة أعوام بأى شكل من الأشكال، وأن يتناسى كلية حكاية الغناء .. ليريح ويستريح. وبالفعل أقبل على حياته الجديدة وكله ألم، يتشاغل عن أفكاره بالاندماج

الكامل فى التدريب العسكرى القاسى، حتى يكاد لا يفترق عن أى مجند آخر فى الجيش الإيطالى. ومع أن كاروزو عمل على أن يكتم أشجانه ولا يطلع عليها أحداً، وأخفى كل صلة له بالغناء وألمه لانقطاعه عنه .. خوفاً من أن يعيره زملاؤه بقلة احتماله، وأنه ليس رجلاً ليتحمل التجنيد .. إلا أن هناك شيئاً فضحه رغما عنه، وهو صوته!

كان رئيس فرقته ضابطاً مثقفاً يهوى الفن، ومنذ الوهلة الأولى وقف على اختلاف مخارج الألفاظ فى صوت كاروزو والتدريب الذى لحقه. وتحقق ظنه وهو يسأله، وماكاد يعلم حتى شمل الجندى الفنان بعطفه ويسر له أقصى ماتسمح به القوانين العسكرية. ويذهب الضابط إلى أبعد من ذلك، بعد أن يدرك مايحمل صوت الشاب من اتساع وثراء. قارن بين مايعود على البلاد من تجنيد كاروزو، الذى لن يزيد أو ينقص من قوة الجيش العامل الذى يحفل بالآلاف من أمثاله الجنود العاديين، الذين لا يتمتعون بمواهب عسكرية خاصة. وبين أن تستفيد به إيطاليا فناناً مغنياً ليس مثله كثيرون! وتجيئ المقارنة دائماً فى صالح الغناء. ويقوده ذلك إلى قناعته بأن الواجب أن يعفى كاروزو من التجنيد!

ولما لم يكن حماس الضابط مجرد نوبة عاطفية تقف عند حد المشاركة الوجدانية، فقد خرج من حيز التفكير إلى التدبير. يتصل الضابط برؤسائه فى هذا الشأن ويعمل على إقناعهم، ويجهد نفسه كثيراً إلى أن يجد أستجابة طيبة. يقول الكاتب الكبير أحمد الصاوى محمد فى "المغنى المجنون"، الذى اعتمدنا

عليه كثيراً فى هذه المعالجة: "وذهب إلى رئيسه طالباً تسريح ذلك الفتى، وقال: إن من العار أن يحبس فى ثكنة مثل هذا الفنان! ومر به عام ووعدوه أن يعفوه من العامين الباقيين إذا حل محله أخ له. وكان أخوه الأصغر جيوفانى قد خطب فتاة يحبها، وجعل يدخر المال للزواج منها، ولكنه أذعن عن طيب خاطر، من أجل أخيه أن يصبح يوماً مغنياً شهيراً، وماذا عليه لو انتظر وانتظرت خطيبته عامين فما يزال عمرها سبعة عشر عاماً. وكانت التضحية نبيلة عظيمة".

ويستكمل كاروزو دراساته على يدى أستاذه فرجين، الذى يجد بعد قليل أنه قد حان الحين لتقديم الشاب إلى الحياة العملية. يعرفه بباسبورو مدير أوبرا نابولى، الذى ماكاد يستمع إلى صوته يغنى حتى يتوسم فيه خيراً ويعينه على الفور بالفرقة، التى كانت فى سبيلها إلى عرض أوبرا جديدة. ويدرك الشاب أن الفرصة التى نالها، يجب أن يعض عليها بالنواجذ. وأن يبذل أقصى الجهد فى دوره، الذى يجب أن يكون جواز مروره إلى عالم الفن. وفى ليلة العرض الأولى تصيبه مواجهة الجمهور الكبير بالرهبة والارتباك، فيضطرب ويتلجلج ويقدم أسوأ ماعنده .. ويشبعه المتفرجون بالصفير والسخرية! ولا يكاد كاروزو يقوم بآخر مشهد، حتى يهرب من الأوبرا وهو منهار تماماً، يشعر بالخزى والهوان اللذين ألحقهما بنفسه. وعند أول بار يصادفه يندفع فيه لعل الخمر تنسيه خيبته وهمه. ويظل يعب منها إلى أن يسكر فلا يعى. وبصعوبة يذهب إلى بيته متطوحاً مضطرب الخطو. وفى

الأيام التالية تصبح الخمر هى كل سلواه، بعد أن سقط فى مستنقع الفشل. ويظل الشاب أياماً طويلة مخموراً يكاد لا يفيق. وتسوء حالته أكثر كلما تذكر ماشيعه به مدير الأوبرا من إهانات وهو يطرده. كما أخذت الصحافة تهاجمه وتنعت أداءه بأسوأ النعوت. وازداد ألمه وأهل الحتة يسخرون منه ومن فشله الذريع وهم الذين شجعوه ووثقوا به زمناً طويلاً، يفاخرون به الأحياء الأخرى ويعلقون عليه الآمال الكبار.

فى هذه الأثناء يشعر مدير الأوبرا أنه قسى على كاروزو قسوة بالغة بلا مبرر، وكان الأجدر به أن يهون عليه ويقف فى صفه لا أن يفعل العكس. ويبعث فى طلبه ويسوءه ماوصل إليه حاله. ويرحب به مرة أخرى فى الفرقة، على أن يقلع تماماً عن الخمر. ولم يكن الشاب فى حاجة إلى من يطالبه بإنقاذ نفسه من براثن الشراب وهو يرتبط بالعودة إلى الغناء الحبيب. وأكدت أيام البروفات ابتعاده كلية عن الخمر. ولكن شاء سوء طالعه وقبل ساعات من العرض، أن يلتقى به أصحابه القدامى فى الشراب وأصروا على أن يشربوا نخب عودته إلى الأوبرا. ووجد من قلة الذوق أن لا يستجيب للدعوة المخلصة .. على أن يتناول كأساً واحدة فقط. ووسط الصحبة والمرح، تغرى الكأس الأولى بالثانية بالثالثة بالرابعة .. وبعديد من الكئوس. وعندما يلتفت كاروزو إلى ماوقع فيه من خطأ، يكون الوقت قد فات. وفى محاولة لإنقاذ مايمكن إنقاذه، يسارع إلى بيته ليأخذ قسطاً من الراحة قبل التمثيل. وتثقل عليه رأسه فينام، ولا يصحو إلا على يد

تهزه هزاً شديداً. وبصعوبة بالغة يعي كاروزو الأشياء حولـه، وهو لا يزال يعاني من آثار السكر الشديد. لقد اقتربت ساعة رفع الستار، وهو لم يحضر بعد. مما اضطر مدير الأوبرا إلى أن يبعـث إليـه مـن يجيئ بـه. وبـالرغـم مـن أن الشـاب حـــاول المستحيل ليتخلص من بصمـات الشـراب .. إلا أنـه لم يوفـق. ولم يكن أحسن حالاً على المسرح .. فالخطوة مترنحة واللفظـة مهـتزة والحضـور مضطـرب، وقـد لاحـظ المشـــاهدون ذلــك بوضوح. وللمرة الثانية يشيع بالصفير والاستهزاء!

بدا وهو خارج من باب الممثلين فى تلك الليلة، كأنه انتهى إلى قرار نهائي بهجر الغناء وألا يطأ خشبة المسـرح إلى الأبـد. فلطمتان متتاليتان إلى أبعد حنايا الروح، توجعان وجعاً ممزقـاً. ولكنه مع ألمه كان أهدأ حالاً، وهـو يـدرك الخطـأ ومسئوليته عنه بوضوح. فلا يلقى اللوم على الآخرين أو القدر، أو يعلقه على شماعات بعيدة عنـــه. بـل يعـترف بجريمته فـى حـق فنـه، والجريمة تعظم إذا كان يحمل التقديـس لهـذا الفـن. وهـو فـى الوقت ذاته يعطى فشله حجمـه الحقيقـى لا أكـبر ولا أصغـر. ولهذا لحقه الفشل هـذه المـرة مـع تكـراره، وهـو أكـثر صلابـة وفهماً لضعفه. ومن هنا لم يتهالك علــى نفسـه ويقـع فريسـة الخيبة، ملتمسـاً التعويـض فـي الخمـر. بـل نهـض سـريعاً مـن كبوته مستجمعاً قواه، مصمماً على أن يتفـوق علـى سـقطته. يشجعه على ذلك أن منافسه فى الفرقة -وبين الإثنين كراهيــة متبادلة- هو الذى يؤدى دوره فى العرض، مما أشعله غيرة.

وفكر وأطال التفكير فى أنسب الطرق التى تدنيه من بغيته، بعد الإخفاق الذى منى به مرتين. إن عليه أن يعتذر لا قولاً بل فعلاً إلى الأصدقاء والمعجبين الذين أحبوه واطمأنوا إلى موهبته وقدرته فخذلهم، كما فعل أيضاً مع مدير الأوبرا. ويهديه عمل الذهن إلى الاستعانة على استعادة فرصته، بمن كانوا السبب فى ضياعه .. وهم أصحاب مجلس الشراب! كان يعرف أنه أخطأ قبل كل شىء فى حق مدير الأوبرا، الذى وثق به وصدق وعده فى الابتعاد عن الخمر، وأتاح له مرة ثانية اعتلاء خشبة المسرح .. ومع ذلك أخلف ظنه. ولذلك لم يفكر أن يذهب إلى الرجل ويستعطفه فى العودة، بل دبر مؤامرة صغيرة ليسمح له بفرصة أخيرة، يؤكد بها موهبته وأصالته الفنية أمام الجماهير.

ذهب فى الليلة التالية إلى الأوبرا متفرجاً .. لا ممثلاً ولا مغنياً. ورآه المشاهدون. وماكاد العرض يبدأ، حتى أصدر أصدقاء كاروزو من الضجيج مالفت الانتباه، وهم يطالبون بعودة كاروزو! ومالبث النظارة أن تعاطفوا، مع الفنان سيئ الحظ، وتكاثرت الصيحات تنادى على كاروزو. ويضطر مدير الأوبرا وهو غاضب أن يستجيب .. وكان صاحبنا فى الانتظار. وبكل لياقته الحقيقية ظهر على خشبة المسرح، فسحر الجمهور من مشهد إلى مشهد. وماكاد ينزل الستار، حتى رفعت مرات وكاروزو يرد على تحيات المشاهدين الذين هزهم صوته العذب وسحرهم تمثيله. وكانت ليلة من ليالى العمر!

(٥)

منذ تلك الليلة برز نجم كاروزو في سماء الفن والغناء، وأصبح أحد لوامع الأوبرا المشهورين. وأدرك الشاب الذى وضع قدمه بجدارة على أول الطريق إلى القمة، أن ذلك يفرض عليه المزيد من الجهد والمسئولية تجاه مايقدم على المسرح. ولا يتخفف كاروزو من هذا الالتزام حتى بعد أن فاضت عليه الشهرة والمجد والمال. بل دفعته أكثر إلى أن يذيب روحه في فنه، مما بلورت نضجه سريعاً، كأنه يعوض كل سنواته التى فاتت. ويلمع اسم الفنان الشاب في المجتمع النابولى، ويعد من أشهر شخصياته. ويتعرف على أجمل غانيات الطبقة الارستقراطية، ويغزو قلوبهن. كما تكثر حوله الفتيات اللاتى يتساقطن على كل مشهور، لمجرد أنه مشهور. وبالرغم أن كاروزو يستمتع بهذا كله، إلا أنه كان في قرارة نفسه غير مقتنع به. فاللذة الجسدية ليست مناط الأمل، ولا يمكن وحدها أن تشبع لأنها متعة ناقصة، وتشكل بلا سند من روح مجرد غريزة حيوانية. وتهفو النفس إلى توأم الروح، إلى الحب الحقيقى.

ومع الاستقرار النفسى والاطمئنان إلى المستقبل، يتطلع المرء إلى أن يستكمل ماينقص حياته الشخصية. وكانت حاجة كاروزو ماسة إلى نوع آخر من المرأة .. لا هذه التى تلم بغرفة النوم بين حين وآخر، وتقضى فيه وقتاً يقصر أو يطول وربما لا تجيئها مرة ثانية، بل المرأة الأخرى التى تملك وحدها أن تقدم كل ألوان المتع الحسية والروحية. والتى لا يقدر

عليها إلا المرأة المقيمة .. الزوجة. لقد ورث الفنان المغنى حب الأسرة عن أمه، ولعل ماكانت تضفيه على البيت من رعاية وحنان رغم الفقر والبوس، تغلغل فى نفوس أولادها وأعطاهم القدوة التى تحتذى والمثال الذى ينسجون على منواله. ومع ذلك لم تتح لكاروزو فى البداية، أن يعثر على من تجسد أحلامه فى هذا الميدان .. إلى أن كان يوم ..

جمهور غفير كل ليلة على باب المسرح فى انتظار خروجه بعد إسدال الستار، ويستقبله بالهتاف والتصفيق. وكانت هى واحدة منه! وبمجرد أن تلاقت الأبصار تسمر فى مكانه على الفور. فقد جمعت كل ماتلهف خياله عليه فى الحبيب المجهول .. من الجمال الآسر والروح الرقيقة والحنان المتدفق والخجل العذرى بلا تعمل. وماكادت تتحدث حتى استكمل صوتها بدفئه بقية ملامح الصورة الجذابة. ولأول مرة تهزه كلمات الإطراء بشكل مغاير. ولما كان فى طريقه إلى المنزل والعربة الحنطور فى انتظاره، فلقد دعاها إلى الركوب معه ليقوم بتوصيلها أولاً .. وتعتذر. فلا ينبغى لها أن تفعل، كما أن عمها سوف يغضب لو علم. ولكنها وجدت نفسها بجانبه. وبكلماتها الخجلى تبثه إعجابها بغنائه معتذرة عن حيائها. وجد كاروزو نفسه من غير أن يشعر، يغير تماماً من طريقته فى التعامل مع المعجبات، ومن أسلوبه فى الحديث إليهن ومبادلتهن إعجاباً بإعجاب والتغزل فيهن. وهى المقدمة التمهيدية من كلا الجانبين لممارسة الحب فيما بعد مع أكثرهن! فقد خجل أن يفعل ذلك مع الفتاة التى تجلس إلى

جواره. فلم يكن في حاجة إلى كثير ذكاء ليدرك أنهـا شيء مختلف عـن الكثيرات اللاتي عرفهن من قبل في بساطتها وصدقها .. مما أفاض على الحديث نفس الأثر. ويتكاشفان كأنهما صديقان قديمان، ويعرض عليها همومه ومخاوفه وأحلامه. ويحدثها عن أمه وأبيه وأسرته، ومختلف ألوان المعاناة التي مر بها في أمسه. والوحدة التي يجد مع الزحام الذي حوله. وتحدثه عن والديها اللذين ماتا، وحياتها مع عمها الموسيقي الذي تعيش معه، وحبها للموسيقي وإجادتها العزف على البيانو. ويمر الوقت سريعاً ويودعها عند باب بيتها، وهو يعدها أن يزورها في غدهما استجابة لدعوتها.

أدرك كاروزو أنه أحب جوزفين، ولأول مرة يفكر في الزواج. فلن يجد أنسب من عذرائه ذات السبعة عشر ربيعاً، ويبارك عمها حبهما. وتتعرض الفتاة لغيرة الكثيرات اللاتي حسدنها على الفوز المبين. وفي حفلة ساهرة تعلن خطبتهما .. وتنفسح الأحلام أمام جوزفين في الغد القريب. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. فوجئ الفنان بينه وبين نفسه بعد وقت قصير، أنه لا يزال يقارن بين العزوبة والزواج، مع أنه ظن أنه قد انتهى من معركة الصراع بينهما منذ زمن طويل لصالح الثاني. ولكنه وجد أنه يرجح بلا حماس فكرة بناء أسرة. ومع صغر سن جوزفين، فقد كانت ذكية ومتفهمة مسئولية خطيبة الفنان، إلا أن كاروزو ضاق بالشكل الرتيب لأجواء البيت! وكلما تصور أنه معرض لأن يكون زوجاً وأباً، تفرض عليه واجباتهما .. كلما تململ من

القيود القادمة. ومع ذلك كان يوهم نفسه أنه لا يزال على الزواج حريصاً. و لم يعرف أنه أسير خداع الذات، إلا عندما التقي بإحدى الراقصات التى فتن بجسدها، وانغمس فى عالمه ناسياً أو متناسياً خطيبته. وانقضت أيام جوزفين من حياته!

(٦)

هل كان لصغر سن جوزفين نسبياً دخل من حيث لا تدرى فى تفكك علاقة كاروزو بها؟ أم أن المغنى الشاب كان لا يزال أضعف من أن يجابه تهالكه على الجسد الأنثوى ومتعه؟ أم أن الإقبال على الزواج الذى يحتاج إلى إعداد نفسى خاص، لم يكن قد تهيأ بعد له؟ لقد عاد كاروزو فى الحب إلى سيرته الأولى، التى خبرها فى أيامه السابقة. وانتقل من واحدة إلى أخرى بدون أن تترك واحدة منهن أثراً باقياً فى نفسه، لأنه لم يشأ أن يختارهن على غير هذا الأساس .. الصلة السريعة التى لا تستهدف شيئاً أكثر من اللذة الجسدية.

وفى هذه الأثناء كان ينتقل من نجاح إلى نجاح، توجه اختيار الموسيقار العالمى جياكومو بوتشينى له لبطولة الأوبرا التى انتهى من تلحينها فى ذلك الوقت -عام ١٨٩٣- وهى "البوهيمية". و لم يكن الملحن الكبير قد رأى كاروزو بعد، وإنما سمع عن صوته وقرأ عن براعته مايثلج الصدر. ويجىء بوتشينى قبل أيام من العرض الأول لمتابعة البروفات. ولا يكاد يشاهد أداء كاروزو ويسمعه حتى يأمره فوراً بالكف عن التمثيل! فقد روع بأسلوب غنائه وماعده طريقة فجة،

أفسدت جمال الألحان التى أعدهـا للأوبرا! لأنـه علـى طرفـى نقيض من طريقته هو، وهي كما يحدد محمد رشاد بـدران فـى "فن الأوبرا": يضم فيها كل أصول أسـلوب "مطابقـة الواقـع" إلى جانب أسلوب ماسنيه العاطفي، ولكنه مع ذلك أقل تحفظاً في التعبير عـن العواطـف"! وتهـاوت آمـال كـاروزو وأحـس بعنف السقطة التى هوت به من حالق، وأدرك أنه سـيطرد إلى الأبد من "سكالا ميلانو" المركز الرئيسى للأوبـرا والباليـه فـى إيطاليا. وفى هذه اللحظة المؤلمة امتدت لـه يـد تسنده وتمنعـه من الارتطام الشديد بـالأرض .. وكـانت بطلـة الفرقـة الأولى الممثلة المشهورة البارعة آدا احيتشتى. هونـت عليـه، وأبـدت استعدادها لمساعدته، وأن تتفرغ له وقتاً بعـد ظهـر كـل يـوم. وقالت له: صحيح أن صوتك جميل ولكنك لا تعـرف بـالفعل كيف تغنى. ومع ضيقه من عبارتها التـى جرحتـه، إلا أنـه لم يعقـب. فقـد كـان همـه الأول ألا يخسـر دوره، فأومـأ لهـا شاكراً.

ولم يكن لكاروزو بآدا أية صلة، فعلاقته بها رسميـة. وربمـا يرجع ذلك إلى أن بطلة الفرقة شهيرة جداً، وتعـد واحـدة مـن أبرع الممثلات الإيطاليات المعدودات، التى لا يقـارن بهـا فـى هـذا المجـال. كمـا أنهـا صاحبـة شـخصية قويـة مترفعـة، وإن كـانت مع زملائهـا وزميلاتهـا طيعـة خـدوم. ومـن منطلـق العطف على آلام الآخريـن .. والتعـايش مـع همومهـم، تضـع الممثلة خبرتها فى خدمته. وتعلمه كيف يغنـى، وتوقفـه علـى الفارق بين أداء الهاوى والمحترف. وتغير مـن شـخصيته الفنيـة

تغييراً واضحاً، فكأنه لم يغن مـن قبل! ومـع أنهـا تعينـه بكـل أستاذية وتمكن، فهى تفعل بتواضـع شـديد حتـى لا يخجـل أن يحملها عبء تعليمه الذى تقوم به بإخلاص وبالمجان. والقرب الشديد من الممثلة الكبيرة التى كانت فى الثلاثين من عمرهـا، يكشف له عـن الكثير مـن عذوبتهـا وسموهـا ورحابـة قلبهـا، وماتملكِ أيضاً من جمال خفى ينبع من قوة شـخصيتها. وهـى أشياء تضفى عليها سحراً خاصاً، تـبز بـه غيرهـا مـن جميـلات الجسد. ومع ذلـك كـانت آدا تتميز بـأجمل نـافذتى روح أو عينين، عرف كاروزو مـدى عمقهمـا وحنانهمـا وهـو يتطلـع إليهما.

والجد الذى اشتهر عن آدا فى المسرح، لازمهـا فـى البيـت وهى تدرب كاروزو .. فالجد جـد واللهـو لهـو. فهـى تكـره الخلط بين الأشياء، وتتهـم الذيـن يسـعون إلى غـير مـايدعون بالجبن والخبث، وأنهم أضعف من أن يبدوا بوجههم الحقيقى. وبالرغم من أن مجال التدريب يسمح بل يشجع على الانفلات إلى هدف آخر، يتفـق مـع نـوازع النفـس والغريـزة وتطلعـات الجنس .. ويكفى أن المجال مجال غنـاء وتمثيـل، إلا أن آدا التـى تحترم نفسها، كانت حريصة على النأى عـن مواطـن الانـزلاق بكافة أشكاله. ولذا حافظت مـع كـل مـابذلت للشـاب من خبرتها وفنها وصدقها فى الأخذ بيده، على مسافة ثابتة بينهـا وبينه لا تعدوها. بحيث منعت بمواقفها المباشرة وغير المباشـرة فى أن تتجاوز العلاقـة بينهمـا منطقـة الزمالـة بـأى حـال مـن الأحوال.

ويتسلل الحب إلى قلبه، ولكنه إزاء سلوكها الصارم في هذه الناحية .. خشي أن يبدى عواطفه أو يبوح بهواه. خوفاً من أن يفقدها كإنسان، أو يفسد على نفسه عونها الفنى وهو أحوج مايعوزه في ذلك الوقت. ومن الطريف أن آدا لم تكن بغافلة عما يكتم الشاب تجاهها، والصراع الناشب في أعماقه إزاءها. ومع ذلك فقد تجاهلت ماتعرف. وعلى مر الأيام وضحت بصمات آدا على تقدم كاروزو فنياً ونفسياً. فما أحرز الشاب من جديد لم يقتصر على طرق الغناء والتمثيل طولاً وعرضاً وعمقاً، بل تعداه إلى شخصيته ذاتها. فأصبحت أكثر امتلاء وثراء، وكأن آدا بشخصيتها القوية المؤثرة بلورت أثمن مافيه وجلته وأظهرته. وقبل ليلة الافتتاح اطمأنت الممثلة الكبيرة إلى قدرة الشاب على القيام بدوره. وبالثقة التى وضعتها فيه، أقدم كاروزو غير هياب ولا وجل. مطمئناً إلى أنه حاز الإعجاب مقدماً بعد أن شهدت له آدا ببراعته. وفى تلك الليلة كتبت الشهادة لمغن عظيم، والقاعة تحييه وتصفق له. ووقع ما لم يحدث إلا مرات نادرة فى العالم، والجماهير المسحورة المنتشية تستعيده مطالبة بإعادة تقديم الفصل الثانى مرة أخرى! وعند انتهاء العرض يظل المشاهدون طويلاً فى حالة حماس جنونى، يحيون كاروزو بنفس التقدير الذى يهتفون به للموسيقار العالمي بوتشينى.

وإذا كانت "البوهيمية" أوصلته إلى الشهرة العالمية، فقد أوصلته أيضاً بعد أن خلقت عملية التأثير والتأثر بين آدا وبينه تياراً متدفقاً متبادلاً إلى قلب معلمته ومحبوبته. وعندما عرض

عليها الزواج، وباحت له بما تحمل له من عاطفة مستكنة بين الضلوع ووافقت على الفور، اكتملت سعادته.

اختارت آدا التى تبغض أنصاف الحلول وتفضل دائماً الموقف الحاسم الصريح، أن تتوفر على تهيئة عش الزواج لرجلها وتصبح ربة بيت، من أن تكون ممثلة مشهورة. وفى ذلك تلاقت مع كاروزو تماماً، الذى أسعده أن تفكر زوجه بهذا الشكل. فهو أيضاً يقدس الحياة الزوجية ويرفعها إلى أعلى مكان. وأثار موقف آدا عجب الكثيرين الذين رأوا فى تفضيلها البيت على التمثيل والغناء تضحية كبرى بلا مبرر، وهى فيها من الخاسرين. وإذا كانت كذلك وتؤمن أن الزواج أهم من الفن، فلم جهادها الطويل فى سبيله إلى أن بلغت فيه مكانة رفيعة؟ كما شككوا فى كاروزو ومدى حفاظه على حبها وتقديره فى الغد القريب أو البعيد لتضحيتها. فتاريخه وماضيه يؤكدان أنه ليس من الصنف الحريص على المرأة التى يحبها. ولكن آدا لم تلق بالاً إلى الناصحين أو المتشككين. بل أصرت على رأيها، فهى تجد فى بيتها وحب زوجها، العوض عن نجاحها الفنى وتصفيق الجماهير. وازدادت تشبثاً بحياتها الجديدة وهى ترزق بابنها رودلف الذى اكتملت به سعادة الزوجين.

وفى البداية نعمت آدا كثيراً بتفرغها للبيت، وزوجها يقضى معها وابنهما معظم وقته مادام فى المدينة. وحتى وهو ينطلق فى نجاحاته ويغنى فى مدن إيطاليا الكبرى، فلم يكن يغيب عن منزله طويلاً. ولكن الأمر اختلف وشهرته تتجاوز

وطنه إلى بقية أنحاء العالم، وتنهال عليه العقود الكثيرة ولآماد طويلة للغناء فى عواصم الدنيا: برلين، باريس، لندن، موسكو، نيويورك .. وغيرها. فتعظم فترات غيابه وهو يكاد ينسى نفسه ومن ثم بيته، في خضم إعجاب الملايين الغامر في كل مكان. وإزاء الوحدة وبعد الزوج واضطلاعها بمسئولية الأم والأب معاً، حوصرت آدا بالأفكار. وبدأت تناقش بينها وبين نفسها جدوى تفرغها للبيت، وكاروزو الذى غلبه مجده أو شهرته على أمره فانساق فى التيار بعيداً جداً أغلب الوقت، يتجاهل أن لها هى الأخرى حقوقاً يجب أن تصان. وتقرر العودة إلى التمثيل. وتوقع بالفعل عقداً للغناء فى أمريكا الجنوبية .. وعندما يعود من إحدى رحلاته تبلغه بما استقرت عليه.

ويصدم كاروزو .. ولا يحاول أن يتفهم موقف امرأته، أو يجد حلا يرضى الطرفين المختلفين ويبقى فى الوقت ذاته على البيت راسخاً والأسرة متماسكة. بل ينظر إلى مايدور من خلال وضعه هو .. مما يغضب آدا أكثر. وتجابهه بصراحة .. ليذكر أيضاً أنها فنانة مثله وكانت مشهورة ولا تزال. وإذا كانت قد توقفت فبمزاجها هى وفى سبيله هو. وأنها اختارت أن تكون ست بيت، ظناً أنه يضع ذلك فى حسبانه وفى تقديره. فإذا أغفله كما صنع طويلاً، فهى فى حل من تضحيتها. ولتفعل مثله تماماً، تبنى مجدها فى فنها .. فلماذا أنانيته إذن؟ وتعمل آدا أن تخفف عليه الوضع، إنها لن تغيب أكثر من ثلاثة أشهر، وقد اتفقت مع أخته على الإشراف على

بيتهما وابنهما فى هذه الأثناء! ولا يملك كاروزو رداً .. وتسافر الزوجة.

ويكون الفراق بداية التصدع، فخيبة الأمل التى أصابت آدا من رحلها، لم تندمل جراحها أبداً. وكاروزو فى انجذاب دائم فى ليله ونهاره إلى فنه، بكل مايحتويه من عناصر شهرة وتصفيق جماهير ولقاء بالأباطرة والملوك والأمراء وعامة الناس. بحيث أصبح ذلك هو مركز حياته الذى يريد واعياً أو غير واع، أن تسير فى ركابه بقية الأشياء من زوجة وبيت وغيرهما! وبالرغم من هذه اللامبالاة فقد كان كاروزو يحب زوجه، ولكنه فى قرارة نفسه كان يطالبها بما لا يستطيع هو، وإن لم يعترف بذلك. مما أدى فى النهاية والمغنى العالمى يشرق ويغرب فى أنحاء الدنيا، إلى المأساة التى حاقت به ودفع ثمنها من روحه ونفسه وكرامته وشرفه .. عندما هربت آدا مع سائقها!

لقد أدى انشغال كاروزو بنفسه وفنه وشهرته، إلى جهله بالكثير الذى كان لزاماً أن يقف عليه أولاً بأول، لو لم يندفع فى حكاية مجده بالشكل الزائد عن الحد الذى فعل. ظن أن ليس فى أفق الحياة الزوجية إلا طموحاته وحدها، التى يجب أن تكون لها السيادة على امرأته، التى لا يحق لها أن تخرج عن الإطار الذى رسمت فيه ملامحها الثابتة ومنها حبها له. بينما كانت آدا وهى حبيسة فهمه القاصر، بعد أن أخفقت فى محاولة زحزحته عن رؤيته الأنانية تجاهها، قد أخذت تتباعد بمشاعرها رويداً رويداً عنه. يائسة من الاعتماد عليه فى إعادة الدفء

إلى حياتها، كما كان فى الماضى. مما اضطرها إلى التطلع إلى أن تجده عند غيره، وفعلت. ولذلك فوجئ كاروزو بما لم ينتظر. وضخم من وقع الصدمة، أنه لم يقف عليها مباشرة بوسائله الخاصة أو فى سرية تامة أو بين أربعة جدران. بل علم بها من زملائه بالمسرح، الذين طالعوها فى صحف الصباح. ومن سوء حظ المغنى العالمى أن الفضيحة تزامنت مع نكبة أخرى شديدة الوقع على نفسه، وهى موت أبيه فى ذات اليوم. كان فى لندن فى إحدى ليالى مجده، والملك والملكة فى انتظاره ضمن جمهوره الغفير الذى يربو على ثمانية آلاف مشاهد فى قاعة "ألبرت هول" الضخمة الفخمة، عندما جاءه نعى والده. وتمزق قلبه ألماً وهو يسمع النبأ، وشعر رغم أعوامه الأربعين وأبوته لصبى، أنه أصبح يتيماً، وأن الخيط السحرى الذى كان يربطه بشجرته الباسقة قد انقطع. وبعث من جديد أشجانه وأحزانه القديمة على أمه، وإن خفف من مصابه أن الأب قد عاش فى أعوامه الأخيرة بفضل رعاية كاروزو له الحياة الطيبة الرغدة التى حلم بها.

وود كاروزو لو كان يستطيع مادام لا يتمكن من السفر السريع إلى ميلانو والعالم لا يعرف الطائرات بعد، أن يغلق عليه باب حجرته فى الفندق ويترك مع آلامه. ولكن أنى له ذلك والآلاف فى انتظاره وعلى رأسهم الملك الذى لا تغرب عن ممتلكاته الشمس. ويذهب إلى المسرح ليجد ظلاً من التكتم لا يعرف مصدره ولا يدرى سببه، فى استقبال زملائه

له على غير العادة. مما يشككه فيما وراء ذلك، ولا يطول تساؤله وهم يقدمون إليه الجريدة التي نشرت الفضيحة.

وينهار أو يكاد ويتفجر دمعه ويدخل حجرته مسرعاً، وهو يشعر أن كل شيء فى حياته قد تحطم. وأن الحياة عبث ولا فائدة ترجى من الناس والأشياء جميعاً. وأن الموت وحده هو الملاذ الأخير المريح. ويفشل الزملاء فى التخفيف أو الترويح عنه. ويجيئه مدير المسرح مطالباً إياه بالإسراع للظهور على المسرح. ولكن كاروزو الملتاع الغارق فى الضياع .. والذى أمسى تتساوى لديه الأوضاع، يرفض لأنه لايريد ولا يستطيع. وقبل هذا وذاك كيف يطلب منه أن يمثل ويغنى وبالأحرى يمتع ويسلى ويبعث البهجة فى نفوس الناس، وهو على هذه الدرجة من الانهيار النفسى والحزن العاصف. ولكن الملك والملكة والآلاف الثمانية الذين فى انتظاره على أحر من الجمر، وقد بدأوا يغضبون لتأخره؟ ويجيئ رد الإنسان التائه اللامبالى: فليغضبوا! وفى محاولة أخيرة للخروج بكاروزو عن أزمته وآلامه وإثنائه عن يأسه، ولإنقاذ الموقف فى القاعة، اقترح أحدهم أن يقدم لحناً يحبه وهو "اضحك أيها المهرج"! ويستصوب كاروزو الاقتراح .. فهو لن يمثل، فلا قدرة له على الإطلاق لاستحضار ملامح إحدى الشخصيات والاندماج فى عالمها، بل يترك نفسه على سجيتها تعبر عما تعانى، وحسبه ذلك.

ويظهر على المسرح فى دور البلياتشو ويتجسد الألم فناً يستدر الدموع، وينبض الحزن بأعماق القلب. ويختفى الممثل

المغنى الذى يبحث عن الإبهار والتأثير، ولا يبقى إلا الإنسان المعذب. ويصبح كاروزو ذاته شخصية مسرحية، وتتعاطف الجماهير بما يقع على خشبة المسرح كما لم يحدث لها أبداً من قبل، ظناً أن الفنان الكبير وصل إلى قمة الإبداع الذى يعمل على امتيازه .. بينما كان المسكين يتلوى من الألم.

(٧)

ومن طبائع وغرائب الأشياء فى نفس الوقت، أن الميزة يمكن أن تنقلب عيباً، لو اختلفت النسب فى تكوينها. وهكذا يفعل الخيال مع كل من يتعاملون معه من فنانين أو مفكرين أو أدباء. فهذا العنصر الذى يجعل مغنى الأوبرا يقطف النجوم من السماء، ويبلغ قاع الأرض عابثاً بالبراكين، ويظن نفسه على خشبة المسرح، القادر على كل شىء. إذا حمل نفس الإحساس خارج الدار .. ضاع. وهو مالم يلتفت إليه كاروزو فى أزمته. لقد ظن وهو يرتفع إلى القمة ويتربع عليها، ويرنو إليه فيها الأباطرة والملوك، أنه من طينة أخرى، لا يتعرض لما يتعرض له غيره. ولذلك عندما استهان بمشاعر وحاجات امرأته وهجرته، وأصابته فى كرامته .. صدم حتى النخاع. نعم. لقد بدا بعد أيام قليلة من حادث فرار آدا، متمالك الأعصاب بعد أن عاد إلى مزاولة أعماله وفنه. ولكن هذا لم يكن صحيحاً، إذ أخفى التجلد الظاهر الانهيار الباطن، الذى مالبث أن أطل برأسه فى ظاهرة التهافت على المرأة بشكل مدمر وشاذ. كأنما غاب العقل والقلب عن الاختيار، فى ظل تسلط الغريزة العمياء. ولما كانت بطولة جسد الأنثى

تحاط بطقوس وثنية من الشراب والتهتك، فقد انغمس كاروزو حتى أذنيه في الانحلال. واستراب أصدقاؤه في الهدف من الانغماس الجسدي .. هل يريد أن ينسى؟ أم هو يعمل بصورة مبتذلة على إثبات رجولته التي أصيبت في الصميم؟ أم هو الثأر الساذج من جنس المرأة؟ أم هي جميعاً؟ ولا يلبث هذا الانحدار أن يتشكل في صورة أشد قبحاً وسوقية .. وهي احتكاكه بالنساء في الطرقات أو في وسائل المواصلات بشكل وقح بذيء!

ويبدو أن فزع النساء في البداية وهن يكتشفن شذوذ الرجل الضخم الذي يتحسس أجسادهن في الزحام وفي غفلة من الأعين، ولا يعرفن له اسماً .. ومن جسامة الفعل في الخفاء والتعرض للفضيحة في العلانية، ساعده على الاستمرار بلا خشية، ويخفي كاروزو الذي تملكه شيطان الشذوذ هذا الجانب المهين الجديد من حياته، عن أقرب المقربين إليه، فلا يعرف به أحد منهم. مستمرئاً على مر الأيام اللعبة الأثيمة، كأنه يثأر لنفسه من المرأة وهو يعمل على تلطيخها. لكن السرية لا تستمر طويلاً، فإذا جبنت قبل ذلك كل سيدة أو فتاة تعرضت للمهانة، فإن امرأة شجاعة تصدت لصاحب الأصابع الملوثة. وماكادت تشعر بفعلته، حتى استدارت إليه غاضبة تضربه بحقيبتها على رأسه ولا تمكنه من الفرار. مصرة أن يقتاد إلى الشرطة، غير عابئة بما في تقديم نفسه واسمه. فسواء أن يكون كما أعلن كاروزو أو لا يكون، فيتساوى. لقد أفسد وأجرم وعليه أن يتحمل تبعة فعلته، وأن يواجه

مسئوليته. وإذ يظهر رجل البوليس، تستحكم الحلقة حول كاروزو .. ويساق إلى حيث يحقق معه.

وتطير الخبر وكالات الأنباء وتعلن الإذاعات وتنشر الصحف .. الفضيحة، التي يخجل منها الأصدقاء قبل الأعداء. ولا تكاد القضية تعلن حتى تتقدم نساء كثيرات وقعن ضحيته، يشهدن ضده. وبالرغم من أنه يفرج عنه بمائة ألف دولار، ثم تبرأ ساحته بعد مرافعات طويلة لأشهر المحامين .. إلا أن اللطخة السوداء تظل عالقة به وقتاً طويلاً، يكاد كاروزو أن ينسحق تحتها.

(٨)

تأثرت نفسية كاروزو وقتاً طويلاً بحادث سقوطه بالغ الشذوذ، واستمر يعاوده كحلم مخيف أو كابوس مزعج، يبلغ من شدته وقبضته التي تأخذ بخناقه .. ألا يفرق بالفعل لحظتها بين الخيال والواقع، أو يشك أنه قد حدث بالفعل. أما في وعيه فما أكثر ماناقشه، وفي كل مرة يصدم أنه صاحبه. فالانحدار المسف الذى أوقع نفسه فيه، لم يكن من داع إليه البتة. خاصة أنه بتكوينه الرقيق ليس سوقياً غليظاً تعجبه اللذة المستهجنة. ولكنه الضعف البشرى الذى لا حدود له، ويصل بمن يتعرض له، إذا لم يقاومه ويتمسك بإرادته حتى في حدها الأدنى، إلى السقوط الحيواني المزرى. وكان درساً مؤلماً - أخطر الدروس- طوال حياته، امتص من روحه غير قليل من الحيوية والزهو والإقبال على الحياة.

وتمضى الدنيا ..

كثيرة هى الحفلات التى كان يدعى إليها كاروزو .. وفى إحداها يلتقى بدورثى ابنة السابعة عشر ربيعاً، ومع أن الحفل احتشد بالفاتنات من كل لون وعمر وفيهن الكثيرات الأجمل، إلا أن الفتاة الجميلة الرشيقة البسيطة احتذبت انتباهه منذ اللحظة الأولى. ولم تكن هى أقل تأثراً باللقاء .. ولعلها كانت أشد. لأنها حملت له إعجاباً عظيماً عندما شاهدته على المسرح وهى طفلة منذ خمسة سنوات، وانشغل كل منهما بصاحبه عن بقية الحفل. وتدعوه إلى زيارتها ويلتقى بأبيها المليونير الذى بدأ حياته عصامياً. ومع أن بارك بيحمان كان على قدر من الثقافة، إلا أن جهاده الشاق والعرق الذى بذل ومعاناته الطويلة فى سبيل تكوين نفسه، أفقدته التعايش مع إنسان يجيئه المال الوفير بلا تعب أو نصب .. لمجرد أن يطلق عقيرته بالغناء مثل كاروزو! ولذلك لم يحس إزاءه بالإعجاب ولا بالصداقة، على حين انغمس كل من كاروزو ودورثى فى حب الآخر! وفكر المغنى العالمى فى الزواج منها، وتقدم إلى أبيها يطلب يدها .. فرفضه على الفور!

وتحاول الفتاة أن تثنى والدها عن قراره بلا فائدة، بينما هو يعمل على إقناعها بعدم جدوى الزواج من رجل يكبرها بربع قرن، كما أنه زئر نساء فارغ العين لا يعرف القناعة مع امرأة واحدة. لكن الحب المتمكن لا يبعدها قيد أنملة عن موقعها. ولا يجد الأب مفراً من أن يطلب إليها أن تقطع صلتها وألا تلتقى به. وإذ لا تتمكن دورثى من لقاء حبيبها المشهور،

فهى لا تعدم أن تتصل به تليفونياً. ولاشك أن القيود التى وضعها الأب تحد من حرية فتاته فى الالتقاء بصاحبها، خاصة فى المجتمع الأمريكي المفتوح الذى تعد العلاقة الجنسية فيه من أيسر الأمور .. قد أشعلت النار أكثر فى الدماء. وحولت قضية الحب فى جانب منها وبالنسبة إلى الفتاة بالذات، إلى قضية المساس بالاستقلال الشخصى وحرية صاحبتها. والتصدى لآمال عاطفية لا تتصل بالحاضر فحسب بل بالمستقبل أيضا. كما أن المنع والحرمان يشحنان النفس بالثورة التى لم يكن لها موجب فى الأحوال العادية. وهكذا تولدت فكرة الفرار من البيت والزواج سراً، بعيداً عن هيمنة الأب "المستبد"!

وانحصر تفكير العذراء الصغيرة فى شىء واحد هوالارتماء فى أحضان الحبيب الغالى، وتحطيم كل مامن شأنه أن يعوق الزواج السريع، غير مفكرة فى أبعد من ذلك خطوة واحدة. وأعجبتها حكاية السرية، كما أثارتها أيضاً روح المغامرة. ونسيت تماماً أو تناست أحلام العذارى فى حفلات الزواج وثوب العرس وموكب الوصيفات، و لم يعد يهمها إلا أن ترى كاروزو وتتزوجه على الفور. وتم هذا كله حسب الخطة الموضوعة .. تسللت من قصر أبيها والتقت بحبيبها فى المكان والموعد المحددين، حيث كان ينتظرها وصديقه شاهد العقد. ويذهبون أولاً إلى دار البلدية لاستخراج تصريح الزواج، ثم إلى الكنيسة حيث يعقد عليهما. وهى تقف أمام القسيس شبه مذعورة ترتعد قليلاً، تحس لأول مرة بوحشة شديدة.

وهى تدرك أنها عروس بلا ثوب زفاف ترتدى ملابس عادية. وهى التى كانت تحلم زمان وإلى أسابيع قليلة فقط بأغلى الثياب وأفخر زفاف، وحيدة فى أسعد مناسبة تحاط بها الفتاة بالجمع الحاشد من الأهل والأصدقاء .. بلا احتفال يحفر اللحظة التى لا تتكرر فى الذاكرة حفراً. وطفرت الدموع من عينيها بلا إرادة. ولا يغفل كاروزو عما انتاب حبيبته من أحاسيس، فأخذ يداعبها ويلاطفها حتى ذهب روعها ..

وتبدأ حياتها الجديدة المفعمة بالصدق والإخلاص والتفانى، مؤكدة بشكل مذهل أن الحب الحقيقى قادر على فعل المستحيل، ويستطيع أن يعوض أى نقص. وقبل هذا كله أن يلغى الحواجز ولا يعترف بفارق الأعمار. ولأن هذا الحب بما يحمل من عاطفة أمينة، هو الأصل فى الحياة، فهو ينفث السعادة فى كل خطواته. ويستكمل مايحتاج صغر السن وقلة التجربة. وتوفق دورثى تماماً فى حياتها الزوجية، وهى تغترف من ينابيع الحب والزواج، ماحلمت به وتطلعت إليه. "إنه دنياى بأسرها. إن الناس يقولون لى دائماً: "لابد أنه شىء رائع ذلك الزواج من أعظم مغن فى العالم، وكنت أجيب دائماً: نعم إنه لكذلك! وماذلك عندى لأنه أعظم مغن فى العالم، بل لأنه أعظم شخص فى العالم!".

وكان يقول لها كثيراً: "كلا يادوراى، يستحيل أن تحبيننى كما أحبك، فأنت شابة، ولا تعرفين الكفاية من الحياة والحب. لقد نلتك فى وقت كان قلبى فيه قد سقط تحت ضغط ظروف الحياة، ولكنه إذا تعلق بك، ألقى أعباءه، وتحرر

من أثقاله، واندفع بكل قواه إلى حبك، أعنى أنه طرد كل السم الذى تراكم فيه خلال سنين عدة، ووجد فيه حبه الجديد ترياقا وشفاء وهناءة، أجل يادورا إننى أعبدك".

نجح الحب بين الزوجين فى تذليل كثير من الصعاب، التى كان أهمها صرامة كاروزو وغيرته وصغر عمر دورثى. وقد حاول كل طرف أن يتفهم عيوب الطرف الآخر أو مايمكن أن يعد كذلك! ولعل ماخفف على الزوجة شدة رجلها، أن أباها كان كذلك! وكانت دورثى قبل كاروزو تدرك الأخطاء التى تقع فيها، بسبب نقص الخبرة وقلة التعليم والإسراع فى الزواج. وتعترف دورثى فى مذكراتها بذلك .. "كان الفرق بين حياتى كفتاة فى بيت أبيها، وحياتى كسيدة متزوجة أعظم مغن فى العالم، كالفرق بين جمد القطب الشمالى وحرارة خط الاستواء. قضيت شهوراً عديدة قبل أن أتعود عليها، وأعدها أمراً واقعاً. وكما أننى كنت قد تعودت تربية أبى الصارمة، كذلك تقبلت من زوجى -دون وعى منى- أن يعاملنى بنفس الطريقة الصارمة، عندما أرتكب خطأ!

وتتعلم دورثى بسرعة، ولا تلبث بعد وقت قليل أن تبدو ربة بيت حقيقية! وليست زوجة صغيرة تضطرب بالنسبة إلى كثير من الأشياء التى لا تجيدها أو تعرفها! وتحمل .. ويكون أمل كاروزو أن تنجب له زوجه ابنة. ومن كثرة وقوة الأمل أخذ يبدو للأبوين، أنه حقيقة واقعة لا يمكن أن تخذل!

وبالفعل ولدت دورثى طفلة جميلة هى جلوريا .. أكثر شبهاً بكاروزو! ورفرفت السعادة كاملة على البيت!

نجح كاروزو في الاحتفاظ بالقمة سنوات، كأعظم مغن فى العالم. يحصل على آلاف الدولارات من أسطواناته وحفلاته في مختلف أنحاء الأرض. وفى كل مرة يفكر فى التقاعد وهو فى أوج مجده، والرجوع إلى وطنه حيث الشمس الدافئة .. يؤجل القرار بمختلف الحجج. وكانت الزوجة العاشقة أكثر إصراراً منه على أن يستريح، غير مقتنعة بالمزاعم التي يسوقها للتهرب من القرار. فهى تعرف الجهد الذى يبذل والآلام التى يتعرض لها فى بعض الأحيان .. إلى أن انحبس صوته أكثر من مرة وعولج، ويعود إلى الغناء. وفى المرة الأخيرة ينفجر الدم في حلقه ويغمى عليه ويسدل الستار.

ويوفق الطب فى علاجه، وتكون دورثى كل شىء فى حياته .. وهى تتمثل فيه الزوج والابن والأب. كانت تعرف أن أقسى مايعانى منه كاروزو هو أنه لن يغنى مرة أخرى، وأنه فى أمس الحاجة إلى التعاطف فى محنته. وأنها تستطيع أن تبذل له من روحها ونفسها مايهدهد أحزانه وتكون بلسماً لجراحه .. فبذلتها له وهى سعيدة أن تكون اليد والصدر والرأس التى تجلب له الراحة والهناءة. ولا يجهل أعظم مغن فى العالم أن أيامه معدودة ..وإن طالت. فيعد العدة لترك وطنه الثانى أمريكا ويرجع إلى وطنه الأول إيطاليا، لتكون أنفاسها هى آخر مايعبق صدره قبل أن يموت على أرضها.

وتودعه أمريكا وداعاً عظيماً يثلج صدره، ويعـود إلى بلـده .. وتكون آخر كلماته: الغناء ودورثى.

وتبقى قصة كاروزو مع دورثى إحدى قصص الحـب الحيـة التى تعيشها الأجيال، وتظل رسائل الفنان العظيـم إلى زوجتـه الوفيـة .. قصيـدة طويلـة عذبـة فـى الهـوى الصـادق. كتـب كاروزو إليها يوماً فى إحدى رسائله يقـول: "أواه يـاحبيبتى! إنك لا تعلمين كيف أحبك. لم يئـن الأوان لـترى مبلـغ هـذا الحب. سترين ذلك فيما بعد، وتحبيننـى علـى نحـو مـاأحبك. إن قلبى يخفق بقوة، يريد أن يشق صدرى ليطير إليـك. إننـى أخاف أن أتركك إذ أموت، وإنى أريد أن أبقى بقربك طويلاً طويلاً، لأستمتع بجمالك ورقتك وحنانك".

الفهرس

للمؤلف

	سنة
مواقف واتجاهات	
المجلس الأعلى للفنون والآداب ط١	١٩٦٩
دار سنابل ط٢	١٩٩٤
مسرح محمد تيمور	
المكتبة الثقافية - الهيئة العامة للكتاب ط١	١٩٧٥
دار سنابل ط٢	١٩٩٤
مسرحيات فى الوهج والظل	
كتاب الهلال - دار الهلال ط١	١٩٧٦
دار سنابل ط٢	١٩٩٤
فى القصة القصيرة	
المجلس الأعلى للفنون والآداب	١٩٧٦
وجوه قصصية قديمة وجديدة	
اقرأ - دار المعارف	١٩٧٨
يوسف السباعى بين الأيام والليالى	
الكتاب الذهبى - روز اليوسف	١٩٧٩
عالم يوسف السباعى	
المجلس الأعلى للفنون والآداب ط١	١٩٧٩
دار سنابل ط٢	١٩٩٤

محمد السباعى

كتاب المواهب ط١

المركز القومى للفنون والآداب ١٩٨٢

أجيال ضد الماركسية

دار الأصالة للثقافة والنشر بالرياض ١٩٨٤

عاشق الحرية ولى الدين يكن

أعلام العرب - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧

دراسات نقدية

المكتبة الثقافية - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠

قلوب عاشقة دار سنابل ١٩٩٣

مجالات إسلامية دار سنابل ١٩٩٤

فنان زمان دار سنابل ١٩٩٥

الفنأن والحب دار سنابل ١٩٩٥

إسماعيل مظهر رجل الفكر وعاشق الحرية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

زكى مبارك عملاق الأدب

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

أنيس منصور بين بلاد الله وخلق الله

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

محمد طلعت حرب والعبقرية المصرية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

أحمد حسن الزيات والقرية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٥

فرح أنطون والمسرح

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٦

شعراء اليقظة الإسلامية فى بداية القرن العشرين

دار سنابل ١٩٩٦

عواطف مضطربة دار سنابل ١٩٩٦

مع الأدباء العرب دار سنابل ١٩٩٦

أحمد أمين والروح الإسلامية

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٦

دفاعاً عن الحق دار سنابل ١٩٩٦

م.ع. الهمشرى شاعر الريف

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٦

ولى الدين يكن وحياة عاصفة دار سنابل ١٩٩٦

الشعر والشعراء دار سنابل ١٩٩٦

بواكير دار سنابل ١٩٩٧

نساء ورجال دار سنابل ١٩٩٧

محمود مختار وضمير الأمة

(شخصيات لامعة) دار سنابل ١٩٩٧

مجموعات دار سنابل ١٩٩٧

روايات مشهورة	دار سنابل	١٩٩٧
ألوان من الشخصيات	دار سنابل	١٩٩٧
رواد ورائدات	دار سنابل	١٩٩٧
رؤية	دار سنابل	١٩٩٧
خمسون كتاباً	دار سنابل	١٩٩٧
ملامح فكرية	دار سنابل	١٩٩٧
جولة قصصية	دار سنابل	١٩٩٧
غرام رجل السياسة ورجل المسرح	دار سنابل	١٩٩٧
أجيال روائية	دار سنابل	١٩٩٧

رقم الإيداع ١٩٩٧/٤٣٥٢

الترقيم الدولى .I.S.B.N

977-5657-32-6

دار سنابل للنشر والتوزيع

المنصوره ١١٢ شارع السكة القديمة

دار
سنابل
للنشر
والتوزيع
المنصوره ١١٢ شارع السكة القديمة


Bibliotheca Alexandrina
0695089